كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلميـة

الفخر الذاتي في معلّقة طرَفَة

"دراسة بلاغية نقدية "

إعداد

د / شعبان شوقي عبدالمحسن

مدرس البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بأسيوط

(العدد الرابع والثلاثون – الجزء الرابع ٢٠١٥م)

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة و السلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ، و بعد :

فإنّ طرَفَة بن العبد يُعَدّ من شعراء الجاهليّة الأفذاذ ، و أحد أصحاب المعلّقَات التي شهِد لها القاصي و الداني .

وكان ممّا لفت نظري إلى طرفة – أثناء قراءتي سيرته – أنّه قُتِل وهو شابّ مُخَلّفًا وراءه شعرا عبقريًّا يناطح به عمالقة الشعراء الجاهليين المُعَمَّرِين، وهذا يعكس عبقريّة شخصيّته ، و أنّها شخصيّة فريدة لها صفات متميزة تدفع الباحث دفعًا لإماطة اللّثَام عنها ، والكشف عن ملامحها . ولمّا كان الفخر الذاتي يدور حول محور الذات وما اتّصفت به من صفات يمّمت وجهي شطر دراسته دراسة بلاغية نقدية في معلقة طرفة التي هي إحدى المُعلّقات السبع ؛ لأنّها اختصّت بجُلّ فخره الذاتي الذّي أعرب فيه عن شخصيّته ، وأبان فيه عن ذاته، يقول الدكتور محمد علي الهاشمي : " أمّا فخره الذّاتي فكان إرضاء لنزعة الاعتداد بالنفس ، وتحقيقا لذاته المتفتّحة على الحياة ، ولا نكاد نجده إلا في معلّقته . أمّا قصائده الأخرى فهو نزر يسير " [1] ومن ثَمَّ كان موضوع البحث :

" الفخر الذاتي في معلّقة طرفة دراسة بلاغية نقدية "

(١) طرفة بن العبد حياته و شعره ، د / محمد علي الهاشمي : ١١٩ ، ط – الأولى ، عالم الكتب ١٤٠٠ – ١٩٨٠م .

و قد اتّبعت في دراستي المنهج التكاملي ، وقد سرت فيه على الخطوات التالية :

أولاً : حصرت الصفات و الأفعال التي افتخر بها الشاعر ، ثُمّ درستها على حسب ورودها مرتبةً في المعلّقة كاشفًا بلاغة طرفة في تصويرها والكشف عنها .

ثانيًا : ربطت التحليل البلاغي للصفات و الأفعال التي افتخر بها الشاعر بسياقه الجزئي والكلي .

ثالثًا : سرت في تحليلي على المنهج الذوقي مقتفيًا في ذلك أثر الإمام عبد القاهر الجرجاني ، فأبرزت الخصائص والأساليب البلاغية التي وظفها طرفة في الكشف عن الصفة التي يفتخر بها ، وكذلك الفعل .

رابعًا : اعتمدت في دراستي على ديوان طرفة بن العبد شرح الأعلم الشَّنْتَمَرِيّ ، تحقيق : درية الخطيب ، ولطفي الصقّال ، ط – الثانية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت .

هذا و قد اقتضت طبيعة هذا المنهج أن يأتي هذا البحث في قسمين من الدراسة تسبقهما مقدمة ، وتذيلهما خاتمة .

أما المقدّمة فذكرت فيها قيمة الموضوع ، ودوافع اختياره ، ومنهج السير فيه .

وأما القسم الأول من الدراسة فهو الدراسة التمهيدية ، وذكرت فيها نبذة عن حياة طرفة بن العبد و شعره .

أما القسم الثاني فقد اشتمل على الدراسة البلاغية كالتالي :

أولاً : الفخر بترويض الناقة .

ثانيًا : الفخر بالشجاعة .

ثالثًا : الفخر بنجدة المستغيث والملهوف .

رابعاً : الفخر بالكرم .

خامساً : الفخر بالندماء .

سادساً : الفخر بمعاقرة الخمر ، والاشتغال باللذات .

سابعاً : الفخر بأفعال وصفات حميدة متعددة .

أما الخاتمة فقد رصدت فيها أهم نتائج البحث ، ثم ذكرت مصادرالبحث ومراجعه.

تمهيد

نبذة عن حياة طرفة بن العبد وشعره

أولًا : حياة طرفة بن العبد :

مولده : ولد طرفة بالبحرين ، وتيتّم باكرًا بأبيه ، وتربى بين أعمامه ، ولاقى منهم العنت ، وجَفَوْه وأمه ، وحرموه كثيرا من حقه ، مما أجج الشعر في نفسه ، وأهاج مخيلته ، فانطلق لسانه بتهديد و وعيد لهم ، بيد أن هذا الغضب العارم لم يؤد إلى ثورة ، بل أفضى به إلى تناسيه ، و الانغماس في حياة اللهو و المجون ، فبدد ماله كله مما جعل قومه يعتزلونه. و لم تحدد كتب التراجم أو التاريخ عاما محددا لمولد الشاعر طرفة بن العبد . وما رجحوه أنه ولد في أول النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ٥٥٢م أو ٥٥٨م.

اسمه : هو عمرو بن العبد البكري الوائلي ، وبكر من بني ربيعة ، فشاعرنا رَبَعي، فهو عدنانيّ النسب .[١]

لقبه : لطرفة لقبان : الأول : هو طَرَفَة ، و لم يعرف مصدر هذا اللقب ، ولا من لقبه إيّاه . الثاني : هو الغلام القتيل ، ولعل أهم من ذكر لقبه هذا الشاعر لبيد بن ربيعة العامري ، حين قال فيه : إنه من أشعر ثلاثة في عصره ، وهم الملك الضليل وهو امرؤ القيس ، والغلام القتيل وهو طرفة والشيخ أبوعقيل ، وقد قصد نفسه .

---

(1) طرفة بن العبد ، تحقيق : حمدو طمّاس : ٥ ، ٦ ، بتصرف . ط – الأولى ، دار المعرفة بيروت – لبنان ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م . و ينظر : نهاية الأرب من شرح معلقات العرب ، تأليف :السيد محمد بدر الدين أبي فراس الحلبي :٣٨ ، ٤٠ . ط – الأولى ، مطبعة السعادة ١٣٢٤هـ – ١٩٠٦م .

وفاته : لم يعمر طرفة طويلا ، فقد قتل وهو شاب في عهد عمرو بن هند ، و قد رويت في قتله قصص معظمها يشير إلى أنه قد قتل بإيحاء عمرو بن هند على يد أحد عماله ، و هو عامله على البحرين . و قد أجمع الكثيرون على أن طرفة لم يعش أكثر من ربع قرن إلا بقليل ، فقيل : عاش ستة وعشرين عاما ، وقيل : عاش أقل من ذلك بقليل ، و قيل : عاش أكثر من ذلك بقليل .[١]

ثانياً : **شِعْر طَرَفَة** :

يُعَدّ طرفة من شعراء الجاهليّة الأفذاذ ، فقد أورده ابن سلام الجمحي في الطبقة الرابعة في كتابه طبقات فحول الشعراء ، و فيه قال : أما طرفة فأشعر الناس واحدة ، وهي قوله :

لخَوْلَـــةَ أطـــلالٌ بِبُرْقَـــةِ ثَهْـــمَدِ وقفتُ بها أبكي وأبْكي إلى الغَد [٢]

ولعل أشهر أشعاره المعلّقة التي بلغت عدّة أبياتها مائة وثلاثة أبيات من الشعر ، ثُمّ الرّائيّة التي مطلعها :

أَصَـــحَوْتَ اليـــومَ أم شـــاقَتْكَ هِـــرّ ومـــن الحُـــبِّ جنـــونٌ مســـتعرْ

و تُعدّ المعلّقة من أجود ما نظم الشاعر طرفة ، و أنفس ما وصلنا من شعره وهي لدى نقاد الشعر القدامى والمعاصرين من أفضل أشعار الجاهلية قاطبة ، و حجة من ذهب هذا المذهب الصدق الذي اتّسمت به هذه المعلّقة في التصوير والتعبير عن الآلام ، و الآراء ، ونظرات الشاعر في الحياة والموت أضف إلى ذلك الصوغ الفاتن واللغة الطيّعة التي تمتّع بها الشاعر ، والتي أعانته على إخراج

---

(١) ينظر : طرفة بن العبد ، تحقيق : حمدو طماس : ٥ ، ٦ . و طرفة بن العبد حياته وشعره " ماجستير " للباحث / محمد الشيخ محمود صيام : ١٤٤ . مخطوط في جامعة الملك عبد العزيز ، كلية الشريعة و الدراسات الإسلامية ، مكة المكرمة ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م .

(٢) الرواية المشهورة للشطر الثاني من البيت : " تَلُوحُ كباقي الوَشْمِ فِي ظاهِرِ اليدِ " .

النص هذا الإخراج اللائق .[١] " ولا مشاحة في أن طرفة بلغ في ريّق شبابه مرتبة عالية في عالم الشعر والشعراء ، لم يبلغها شعراء آخرون أفنَوْا أعمارهم في قرض الشعر . و ما كان ليبلغ هذه المنزلة على حداثة سنه لو لم يكن على جانب عظيم من حدة الذهن ، ونباهة الفكر ، وخصب الموهبة ، ورهف الحس ، وقوة الشاعرية ."[٢]

ولشعر طرفة أغراض تمثلت في الهجاء ، والفخر ، والوصف والحكمة . وسأتناول بإيجاز الحديث عن غرض الفخر الذي عنونت البحث بأحد نوعيه ، وهو الفخر الذاتي . جاء في لسان العرب : الفَخْر والفَخَر مثل نَهْر ونَهَر والفُخْر والفَخَار : التمدّح بالخصال ، والافتخار ، وعدُّ القديم .[٣]

والفخر من أدل فنون الأدب على فطرة الإنسان، فهو صدى تطلع النفس إلى ذاتها، والتعبير عن الأثرة أشد النزعات فيها . والإنسان – كما لا يخفى – سجين ذاته منذ الولادة ، يديم النظر في مرآتها مستجليا محاسنها .[٤]

والفخر في شعر طرفة لونان : فخر ذاتي ، وفخر جماعي . أمّا فخره الذاتي فكان إرضاءً لنزعة الاعتداد بالنفس ، و تحقيقا لذاته المتفتحة على الحياة . فالفخر الذاتي : هو ما دار حول الشاعر في نفسه ، و محاسنها ، وفضائلها ؛ لأنّ العربي نزوع من فطرته إلى العلاء ، ميّال إلى التعالي والمباهاة ، شديد

---

[١] طرفة بن العبد ، تحقيق : حمدو طمّاس : ٩ ، ١٠ ، بتصرف . و ينظر : طرفة بن العبد شرح الأعلم الشَّنْتَمَرِيّ ، تحقيق : دريّة الخطيب ، ولطفي الصقّال : ٥ . ط – الثانية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت – لبنان . وإدارة الثقافة والفنون ، البحرين ٢٠٠٠م .

[٢] طرفة بن العبد حياته وشعره ، د / محمد علي الهاشمي : ١٨٦ .

[٣] ينظر : لسان العرب لابن منظور ، تحقيق : عامر أحمد حيدر " مادة : فخر "، جـ ٥ : ٥٧ . ط – الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ٢٠٠٣م – ١٤٢٤هـ .

[٤] الفخر و الحماسة ، تأليف : حنّا الفاخوري : ٥ ، بتصرف . ط – الخامسة ، دار المعارف .

الاندفاق بما في نفسه من نزعات ، والتغني بما فيها من حسنات ، شديد التطلّع إلى ما مضى من الزمان ، و إلى مآثر الآباء و الأجداد. ولا نكاد نجد الفخر الذاتي في شعر طرفة إلا في معلّقته.أمّا قصائده الأخرى فهو نزر يسير.

وأمّا فخره الجماعي فقد شدا فيه ألحان القبيلة ، و ذلك بتجلية محاسنها ومحامدها و مفاخرها للناس . و قد تنوع الفخر الذاتي في معلّقة طرفة ، فقد فخر بترويض ناقته ، وبالشجاعة ، و بنجدة المستغيث والملهوف ، وبالكرم ، وبالندماء ، وبمعاقرة الخمر و الاشتغال باللذات، و بأفعال وصفات حميدة متعددة كالصبر ، و القوة ، والعزة.[1]

[1] ينظر : طرفة بن العبد حياته وشعره ، د / محمد علي الهاشمي : ١١٩ . والفخر والحماسة ، تأليف : حنّا الفاخوري : ٩ .

الفخر الذاتي في معلّقة طرفة
دراسة بلاغيّة نقديّة

هنالك عوامل عدة جعلت من الفخر غرضا رئيسا في شعر عنترة ، و إذا كانت مقومات هذا الغرض لم تكتمل في حياة الشاعر طرفة من حيث الانتصار في المعارك مثل عنترة ، و لم يُتَحْ للشاعر ما أتيح لعمرو بن كلثوم ولبيد من مآثر القبيلة ، فإنّ طبيعة طرفة ، و موقف القبيلة منه بعد موت أبيه ، وحياة اللهو و التبذير التي عاشها الشاعر في عمره القصير ... كلُّ هذا قد جعل ميدان الفخر الذاتي له علقة بنفس الشاعر ، فتفجرت قريحته بأروع ما دبّجته ريشة الشعر الجاهلي في هذا السياق .

أولا : **الفخر بترويض[1] الناقة** .

بدأ طرفة الفخر بترويضه ناقته والسيطرة عليها في قوله[2]:

وإنْ شئتُ سامى وَاسطَ الكورِ رَأْسُها وعَامَتْ بضَبعَيها نجاءَ الْخَفَيْدَدِ [1]

---

[1] الترويض : الراء و الواو والضاد أصلان متقاربان في القياس ، أحدهما يدل على اتّساع ، و الآخرُ على تليين و تسهيل . فالأول : قولهم : استراض المكانُ : اتّسع . أمّا الأصل الآخر : فقولهم : رُضْتُ الناقة أرُوضُهَا رياضة ، أي : وطّأتها وذلّلتها أو علّمتها السير . يقال : راض الدابة يَرُوضُهَا روْضًا ورياضة : وطَّأهَا وذلَّلها أو علّمها السير.وكذلك روّضته شدّد للمبالغة .

ينظر : مقاييس اللغة لابن فارس ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون " مادة : روض " جـ٢ : ٤٥٩ . ط – دار الفكر ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م . ولسان العرب " مادة: روض"، جـ٧ : ١٨٤ ، ١٨٥ .

[2] ديوان طرفة شرح الأعلم الشَّنْتَمَرِيّ ، تحقيق : دريّة الخطيب ، ولطفي الصقّال : ٣٩ ، ٤٠ .

وإنْ شئتُ لَمْ تُرْقِل و إنْ شئتُ أرْقلتْ مَخافَةَ مَلْوِيٍّ مِنَ القَدّ مُحْصَدِ [٢]

يقول طرفة : إن شاء جعل رأس ناقته موازيًا واسط رحلها في العلوّ بجذبه زمامها . و إن شاء ألا تسرع في سيرها لم تسرع ، و إن شاء أن تسرع أسرعت مخافة سوطه المفتول القوي . [٣]

استأنف الشاعر حديثه الذي جاء في سياق وصف الناقة بمعنى من معاني الفخر ، فالشاعر يفخر بترويضه ناقته ، فهي ناقة طيّعة ذلول منقادة طوع مشيئته . فقد آثر الشاعر " إن " الشرطيّة دون " إذا " في قوله : " وإن شئتُ سامى ... ، و إن شئتُ لم ترقل، و إن شئتُ أرقلت " للإشعار بندرة المشيئة والإرادة منه ؛لأنّ ناقته تطبّعت بما شاء و أراد ، و توحّدت معه ، فهي تشعر بما يريد منها فتستجيب دون أن يبرز لها إرادته في سوطه المفتول القوي . ولا غرْوَ في هذا فهي صاحبه الوفيّ وأنيسه الوحيد في عالمه الذي نبذه و ألغى إرادته و مشيئته ؛ و لذلك حظيت ناقته بنصيب وافر من الحديث عنها في معلّقته . و المعهود أنّ "

---

[١] الكُور (بالضم) : الرحل ، وقيل : الرحل بأداته ، والجمع : أكوار وأكْوُرٌ . الضبْع (بسكون الباء) : وسَطُ العَضُدِ بلحمه يكون للإنسان وغيره . والجمع : أضباع . وقيل: العَضُدُ كُلُّهَا . وقيل : الإبْطُ . تقول : أخذ بضَبْعَيْه ، أي : بعَضُدَيْهِ . النَّجَاء : السرعة في السير . الخَفَيْدَدُ : الظليم الخفيف . و قيل : هو الظليم الويل الساقين . قيل للظليم خَفَيْدَد لسرعته . والجمع : خفادد وخَفَيْدَدات . ينظر : لسان العرب " مادة : كور " جـ٥ : ١٨١ . و" مادة : ضبع " ، جـ٨ : ٢٥٧ . و" مادة : نجا " جـ١٥ : ٣٥٥ . و" مادة : خفد " جـ٣ : ٢٠٢ .

[٢] القِدُّ : السير الذي يُقَدُّ من جلد غير مدبوغ . الحَصَد : اشتداد الفتل ، واستحكام الصناعة في الأوتار والحبال والدروع . وحبل مُحْصَد، أي : محكم مفتول . الإرقال : السرعة . يقال : أرقلت الناقة إرقالا : أسرعت . ينظر : لسان العرب " مادة : رقل " ، جـ١١ : ٣٥١

[٣] ينظر : ديوان طرفة شرح الأعلم الشنتمري : ٣٩ ، ٤٠ .

إنْ " للتعليق في الاستقبال ، فشرطها و جوابها لا يصح أن يكونا ماضيين لفظا و معنى ؛ لأنّ ذلك ينافي كونها للمستقبل ؛ [1] ولذلك جاء جواب الشرط : " سامى ، أرقلت " ماضيا لفظا مستقبلا معنى تأكيدا لطاعة ناقته له ، وأنّها طاعة متحققة دائما ، فناقته لا تخالفه في إرادته و مشيئته . وفي هذا فخر للشاعر بنجاحه في ترويض ناقته ، و هذا الفخر حمله إسناد فعل المشيئة إلى" تاء" المتكلم ، فإبراز الشاعر الضميرَ في قوله : " شئتُ " إبراز لمشيئته و إرادته ، فهو إبراز للذّات أفاض من نفس الشاعر مشاعر الثقة في قدرته وتمكنه من ناقته وسيطرته عليها ، فهي طوع إرادته لا تخرج عن مشيئته . وقد ساهم طباق السلب في قوله :" لم ترقل ، أرقلت " في إيضاح هذا التمكن وتلك السيطرة . وعطفت جملة : " وعامت بضبعيها نجاء الخفيدد " على جملة جواب الشرط : " سامى واسط الكور رأسُهَا " لما بين الجملتين من التوسط بين الكمالين ، فقد اتّحدتا في الخبريّة لفظا و معنى ، أي : ارتفع رأس الناقة بسبب جذب طرفة زمامها حتى صار موازيا واسط الكور (الرحل) في العلوّ مؤذنًا بإسراع الناقة، التي سرعان ما استجابت، وعامت بضَبْعَيْها (بعَضُدَيها) مسرعة كالخَفَيْدد (ذكر النعام). فالجملة المعطوفة: " وعامت ... " جاءت تأكيدا لمضمون جملة جواب الشرط : " سامى ... " ، و هي مبيّنة – أيضا – لنوع وقوة الإرقال (الإسراع) الذي شاءه طرفة بما احتوته من استعارة وتشبيه ، فسرعتها فيها سلاسة و يسر كالسفينة السابحة على صفحة الماء . كما أنّها سرعة فائقة تشبه سرعة ذكر النعام . ولمّا كانت السرعة الفائقة للدابّة والمركبة مدعاة لاختبار قائدها في قدرته على السيطرة والتحكم ؛ اعتنى بها طرفة مزيد اعتناء بوصفها الموضح لنوعها و قوتها من خلال الاستعارة

[1] ينظر : خصائص التراكيب ، د / محمد أبو موسى : ٣٧١ . ط – الثامنة ، مكتبة وهبة ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩م .

والتشبيه ، و بإضافة الصفة إلى الموصوف في قوله : " نجاء الخفيدد ". " والأصل أن نبدأ بالموصوف ثم نتبعه الصفة ... ولكنّهم إذا أرادوا مزيد العناية بالصفة قدّموها ".[1] فقدّم – هنا – طرفة الصفة : " نجاء " بمعنى : السرعة على الموصوف و هو : " الخفيدد " ، أي : ذكر النعام ؛ لعنايته بسرعة ناقته ، و أنّها سرعة مُتَحَكِّم فيها ومسيطر عليها ، لاتخرج عن مشيئته وإرادته. وهذه الثقة بالنفس لوّح بها حذف مفعول الفعل : " شاء " في قوله : " و إن شئتُ سامى ... ، و إن شئتُ لم ترقل ، و إن شئتُ أرقلت " . والتقدير : و إن شئتُ أن يسامي رأسُها واسطَ الكور سامى ، و إن شئتُ ألا ترقل ناقتي لم ترقل ، و إن شئتُ إرقالها أرقلت .[2] فإنّ حذف المفعول – هنا – حرّك النفس لتعرف حقيقة مشيئة هذا الرجل ؛ فأعجلها الشاعر ببيان هذه المشيئة ، فأصاب من النفس موقعا حسنا . و قد دلّ على حذف المفعول جواب الشرط ، وفي دلالة جواب الشرط عليه بعد حذفه من اللفظ بيان له بعد إبهام ، و هو أوقع في النفس .

وتعليل استجابة الناقة لمشيئة الشاعر بالمفعول لأجله : " مخافة " في قوله : " مَخافَةَ مَلْوِيٍّ مِنَ القَدّ مُحْصَدِ " يلقي بالظن في نفس القارئ والسامع أنّ الناقة كانت جامحة متمرّدة ، لا تستجيب لصاحبها إلا تحت تهديد السوط والخوف منه . وهذا المعنى يهدم معنى الافتخار بترويض الناقة الذي بنيت عليه المشيئة المسندة إلى ضمير الشاعر البارز والمعلن عن ذاته . وهذا الظن يذهب أدراج الرياح إذا عرفنا أنّ المشيئة وُلِدتْ وعاشت في كَنَف " إنْ " الشرطيّة المشعرة بندرة المشيئة و الإرادة من الشاعر ؛ لأنّ ناقته قد انتهى منذ زمن من ترويضها ، فهي ناقة مروّضة ، تطبّعت بما شاء وأراد . فالمفعول لأجله : " مخافة " تأكيد لسيطرته

---

[1] قراءة في الأدب القديم ، د/ محمد أبو موسى : ١٨٥ . ط – الثالثة ، مكتبة وهبة ٢٠٠٦م.

[2] ينظر : خصائص التراكيب ، د/ محمد أبو موسى : ٣٨٦ ، ٣٨٧ .

عليها ؛لأنّها تطبّعت منذ زمن بطابع الخوف من سوطه المفتول القوي. وهذا السوط المنعوت بنعوت تجعله فريدا في نوعه و قوته ، فهو سوط مقدود من الجلد ، مفتول " ملْويّ " ، شديد الفتل " محصد " يكشف لنا عن ناقة ليست كالنوق ، و إنّما هي ناقة فريدة في القوة والسرعة ، لم يكن ترويضها الذي صار مفخرة الشاعر سهلا لكل أحد ؛ ولذلك كان ترويضُها ترويضًا خاصًّا انفرد به الشاعر .

ثانيا : **الفخر بالشجاعة** [1]

وفي سياق حديث طرفة عن ناقته وصفاتها جاء فخره بشجاعته في قوله [2] :

على مِثْلِهَا أمْضي إذا قالَ صَاحِبي ألا لَيتَنِي أفْديكَ منها وأفْتَدِي

وجاشَتْ إلَيْهِ النفسُ خَوفًا وَ خَالَه مُصَابًا وَلَوْ أمسَى على غَيْرِ مَرْصَدِ

يقول : على مثل هذه الناقة التي أصف أسير و أمضي إذا استبدّ الخوف من الفلاة بصاحبي ، وقال : أعطيك فداءك وتنجو ، وأفتدي أنا – أيضا – منها وأنجو. واضطربت نفس هذا الصاحب اضطرابا شديدا كجيشان القدر ، أي : غليانه. وظنّ أنّه هالك ، وإن كان في موضع لا يرصده فيه العدوّ .[3]

جاء الحديث عن صفة الشجاعة في سياق حديث طرفة عن ناقته و صفاتها متفرّعا منه . فقد ذكر طرفة أنّه اختص ناقته بالسير بها في رحلاته المحفوفة بالمخاطر و المهالك دون غيرها من النوق مبالغة في تفوّقها وتفرّدها

---

[1] الشجاعة : شدّة القلب في البأس . يقال : شجُعَ (بالضم) شَجَاعة : اشتدّ عند البأس . ينظر : لسان العرب " مادة : شجع " ، جـ ٨ : ٢٠٦ .

[2] ديوان طرفة شرح الأعلم الشَّنْتَمَريّ : ٤٠ .

[3] ينظر : ديوان طرفة شرح الأعلم الشَّنْتَمَريّ : ٤٠ ، ٤١ .

بصفات جعلتها الكاملة في جنسها . ثم فرّع من هذا الحديث حديثه عن صفة الشجاعة و إثباتها له عن طريق إثبات ضدها وهو الجبن لصاحبه وقد تمثّل هذا الجبن في خوف وذعر هذا الصاحب من السير في هذه الفلاة ذات المخاطر والمهالك ، و الذي كنى عنه بجملة المقول : " ألا لَيتَنِي أفْديكَ منها وأفْتَدِي . " فجملة المقول كناية عن خوف و ذعر هذا الصاحب من مخاطر الفلاة وأهوالها . فقد افتتحها بـ " ألا " لينبه الشاعر بخطر السير في هذه الفلاة ، فـ " ألا " و الصوت الممتد فيها يحمل انفعال الصاحب المائج في نفسه خوفا على صاحبه . فهو يتمنّى[1] أن يفتدي صاحبه (الشاعر) و نفسه من السير في هذه الفلوات المهلكة. والتمني بـ " ليت " مشعر بأنّ هذا الفداء غير مطموع في حصوله لبعد منالـه . فالبعد – هنا – بعد نفسي مرده إلى شعور الصاحب و إحساسه بأنّ طبيعة صاحبه (الشاعر) التي جُبِلت على ركوب المخاطر و الأهوال تأبى هذا الفداء . " تقول في تمني الشئ المحبوب الذي يمكن حصوله ، و لكنّه غير مطموع فيه لبعد منالـه : ليت لي مالا فأحجَّ منه ، ليتني ألقى فلانا فأنتفع بعلمه . والبعد – هنا – بعد نفسي مرده إلى شعور النفس وإحساسها بذلك الشئ . " [2] و في الكناية عن خوف و ذعر هذا الصاحب من مخاطر الفلاة وأهوالها في قوله : " ألا لَيتَنِي أفْديكَ منها و أفْتَدِي " ، و ما أبدته " ألا " الاستفتاحية في جملة المقول من الانفعال بالخوف ، وما أشعرت به " ليت " دليل و برهان على شجاعة الشاعر . فإنّ الصاحب من شدة هلعه و خوفه من مخاطر الفلاة نبّه الشاعر أنّه مستعدّ

---

[2] التّمنّي : " هو طلب أمر تُحِبُّه النفس ، و تميل إليه ، و ترغب فيه ، و لكنّه لا يرجى حصوله إمّا لكونه مستحيلا ، أو لكونه بعيدا لا يطمع في نيله . " علم المعاني ، د/ بسيوني عبد الفتاح فيود : ٣٣٧ . ط – الثانية ، مؤسسة المختار ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨م .

[1] علم المعاني . د / بسيوني عبد الفتاح فيود : ٣٣٨ .

أن يفتديه ، ولكنّه يعلم أنّ الشاعر لا يرضى بهذا الفداء ، و أنّه مقدم على المضي و السير في الفلاة غير عابئ بمخاطرها وأهوالها . وعطفت جملة : " و جاشَتْ إلَيْهِ النفسُ " على جملة : " قالَ صَاحِبي " للتوسط بين الكمالين ، فقد اتّفقت الجملتان في الخبريّة . والجملة المعطوفة : " و جاشَتْ إلَيْهِ النفسُ " مؤكِّدة لما نمّت به الكناية بجملة المقول عن شدة هلع وفزع الصاحب من السير في الفلاة ذات الأهوال و المخاطر. فالصاحب يشعر بهذه المخاطر و الأهوال ومنها جاشت إليه نفسه خوفا . فقد جسّدت الاستعارة في قوله : " جاشَتْ " هذا الخوف الذي تملّك نفس هذا الصاحب وملأها ، فقد شبّه اضطراب نفسه بسبب الخوف من مخاطر و أهوال الفلاة بـ جيشان القدر ، أي : غليانها . " و كل شئ يغلي فهو يجيش حتى الهم و الغصّة في الصدر ."[1] و يتصاعد خوف صاحب الشاعر حتى يصل إلى ذروته ، فهو يظن أنّه هالك وإن كان في موضع لا يرصده فيه العدو . وهذا المعنى حملته جملة :" وَ خَاله مُصَابًا " المعطوفة على جملة :" جاشَتْ إلَيْهِ النفسُ خَوفًا " للتوسط بين الكمالين . وهي مؤكدة و مقررة للخوف الذي اجتاح نفس صاحب الشاعر ، وهو الخوف عينه الذي أبرز صفة الشجاعة عند الشاعر طرفة الذي يشق هذه الفلوات ذات المخاطر والأهوال على ناقته.

و في سياق فخره بخفة جسمه وذكائه جاء فخره بشجاعته ، يقول [2] :

و آليــتُ لا يَنفَــكُّ كَشْــحِي بِطَــانَةً لعَضْـبٍ رَقِيـقِ الشّفْـرتين مُهنَّـدِ [1]

---

[2] تاج العروس للزبيدي . تحقيق : مصطفى حجازي . " مادة : جيش " جـ١٧ : ١١٦ . ط – حكومة الكويت ١٢٩٧ هـ – ١٩٧٧م .

[1] ديوان طرفة شرح الأعلم الشَّنْتَمَريّ : ٥٤ .

أَخِــي ثِقَــةٍ لا يَنْثَنِــي عــن ضَــرِيبَةٍ إِذَا قِيلَ : مَهْلاَ قال حاجزُهُ : قَد[٢]

حُــسامٍ إِذا مــا قُمْــتُ مُنْتَصِــراً بِــه كَفَى العَوْدَ مِنْه البَدْءُ لَيْسَ بمِعْضَدِ[٣]

إِذا ابْتَــدَرَ القَــوْمُ السِّــلاحَ وَجَــدْتَنِي مَنِيــعاً إِذا بَلَّــتْ بقــائِمِهِ يَــدِي [٤]

أخبر الشاعر أنّه أقسم أن يبقى متمنطقًا بسيفه لا يتركه : " و آليتُ لا يَنفَكُّ كَشْحِي بِطَانَةً لعَضْبٍ . " و الإخبار بقسمه هذا معرب عن ثقته في نفسه وفي شجاعتها . و تتناغم أداة النفي " لا " بامتداد الصوت منها و انطلاقه في قوله : " لا يَنفَكُّ " مع مضمون الخبر الذي وردت فيه ، وهو ملازمة الشاعر سيفه وعدم تركه . " إنّ امتداد الصوت و انطلاقه في هذا الحرف يشعر بتطاول زمن هذا النفي ، و أنّ النفي به حريّ أن يكون للتأبيد . " [٥]

---

[٢] الكَشْح : ما بين الخاصرة إلى الضِّلَعِ الخلْف ، و هو من لدُن السرة إلى المتن . العَضْب : السيفُ القاطع . ينظر : لسان العرب . " مادة : كشح " ، جـ٢ : ٦٧٧ . و " مادة : عضب " ، جـ١ : ٧١١ .

[٣] الحجز : الفصل بين الشيئين . حجز بينهما يَحْجُزُ حَجْزًا . واسم ما فصل بينهما : الحاجز . ومعنى " قَدِ " في قوله : " قال حاجزُهُ : قَدِ " : قد قطع . و يجوز أن يكون معناه : قَدْكَ ، أي : حَسْبُكَ ؛ لأنّه قد فرغ ممّا أريد منه ، فلا معنى لرَدْعِكَ وزَجْرِكَ . ينظر : لسان العرب . " مادة : حجز " ، جـ٥ : ٣٨٦ . و " مادة : قدد " ، جـ٣ : ٤٢٦ .

[٤] المِعْضَدُ من السيوف : الردئ المُمْتَهن في قطع الشجر . ينظر : لسان العرب . " مادة : عضد " ، جـ٣ : ٣٦١ .

[٥] ابتَدَرُوا السلاح : تبادروا إلى أخذه ، أي : أسرعوا. تقول : بَدَرْتُ إلى الشئ أبْدُرُ بُدُورًا : أسرعت. ينظر : لسان العرب . " مادة : بدر " ، جـ٤ : ٥٥ .

[١] قراءة في الأدب القديم . د/ محمد أبو موسى : ٢٠٧ .

وإبراز الشاعر الضمير في قوله : " آليتُ " يشير إلى إبراز الذات و نهوضها بالأعمال الصعبة . فالشاعر يلازم سيفه ولا يتركه ، وهذا ما تمليه عليه بيئته العربيّة وقتئذ من استعداده الدائم للذود عن قبيلته ، و دفع المخاطر المحدقة بها ، ففارسها الشجاع لا يترك سيفه ويلازمه دائما . و قد حشد الشاعر لسيفه صفات : " عَضْبٍ ، رَقِيقِ الشّفْرتين ، مُهنَّدِ ، أَخِي ثِقَةٍ ، لا يَنْثَنِي عن ضَرِيبَةٍ " وهذه الصفات تدل على الاعتداد بالنفس ، والمباهاة بالشجاعة. فهذه الصفات وإن أبدت بعضها قوة السيف في ذاته ، فالبعض الآخر يبديها نابعة من ذات الشاعر . فالسيف الجيد لا يفيد مع الجبان ، إنّما تبدو جودته في يد الفارس الشجاع الذي يضرب به بقوة فلا ينثني عن ضريبة . و قد أنبأ الشاعر عن العلاقة بين السيف الجيد والفارس الشجاع باستعارة الأخ الثقة للسيف في قوله : " أَخِي ثِقَةٍ لا يَنْثَنِي عن ضَرِيبَةٍ. " و هذه الأستعارة مشعرة بطول الملازمة ، و الوفاء للشاعر الذي كنى عنه بقوله : " لا يَنْثَنِي عن ضَرِيبَةٍ إذَا قِيلَ : مَهْلاَ قال حاجزُهُ : قَد." وتنكير " ضريبة " لإفادة التعظيم ، أي : ضربة عظيمة حاسمة لجودة السيف ، و قوة وشجاعة صاحبه.

وبرفع " حسام " على الاستئناف في قوله :

حُســـامٌ إذا مـــا قُمْـــتُ مُنْتَصِـــراً بِـــه كَفَى العَوْدَ مِنْـه البَدْءُ لَيْسَ بمِعْضَدِ

يكون الشاعر بدأ مقطعا جديدا من مقاطع المعنى يبين به – أيضًا – العلاقة بين السيف الجيد و الفارس الشجاع ، و لكن بتمييز هذه العلاقة– هنا – عن سابقتها ؛ و ذلك بحذف المسند إليه ؛ ليبقى المسند " الحسام " متميّزًا . فهذا الحسام إذا انتصر به الشاعر الفارس الشجاع ، كفته الضربة الأولى عن إعادة ضربته ثانية . ولا يخفى ما يفيده تنكير " حسام " من التعظيم أو النوعيّة . فهو سيف عظيم ، أو هو نوع من السيوف النادرة التي لا يستعملها إلا الشجعان من الفرسان . وأكّد هذا المضمون الذي ميّزه الشاعر بحذف المسند إليه أسلوبُ الشرط بـ" إذا " في قوله :" إذا ما قُمْتُ مُنْتَصِراً به كَفَى العَوْدَ مِنْه البَدْءُ ." فإنّ " إذا " للشرط كثير الوقوع ، و كأنّ قيام الشاعر منتصرا بهذا السيف صار عادة من عاداته ، وحالا من أحواله .وهذه أمارة على شجاعة الشاعر التي أكّدها بإسناد فعل القيام إلى الضمير البارز في قوله : " قمتُ " حيث أشعر هذا الإسناد بالثقة في النفس النابع من ذات تشعر بالقوة والفخر . وأكّدها – أيضا – بأسلوب الشرط بـ " إذا " في قوله :

إذا ابْتَـــدَرَ القَـــوْمُ السِّـــلاحَ وَجَـــدْتَنِي مَنِيـــعاً إذا بَلَّـــتْ بقـــائِمِهِ يَـــدِي

يقول : إذا عجل القوم إلى السلاح ، و تسارعوا نحوه لأمر دهمهم ، وجدتني في الصدارة منهم فارسا شجاعا يذود العدوّ و يمنع .[1] فالشرط بـ " إذا " أبرز كثرة حمل القوم السلاح لمواجهة الأعداء ، ممّا جعل الجواب " وَجَدْتَنِي مَنِيعاً إذا بَلَّتْ بقائِمِهِ يَدِي " يبرز شجاعة الشاعر بتصدّره هذه المواجهات ، وفي

[1] ديوان طرفة شرح الأعلم الشَّنْتَمَريّ : ٥٥ .

تقييد كون الشاعر منيعا لا يقهر ولا يغلب بقوله : " إِذا بَلَّتْ بقائِمِهِ يَدِي. " أي : أمسكت يده مقبض سيفه ، إشعار بثقة الشاعر في الانتصار له ولقومه ، وأنّ انتصاره متحقق متى أمسك بسيفه .

ثالثًا: الفخر بنجدة المستغيث والملهوف .

وفي سياق حديث طرفة عن شجاعته التي تجسّدت في اقتحامه مخاطر وأهوال الفلاة بناقته جاء فخره بنجدته المستغيث والملهوف في قوله [1] :

إذَا القَوْمُ قَالُوا : مَنْ فَتَىً؟ خِلْتُ أنَّنِي عُنِيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدِ [2]

أَحَلْتُ عَلَيْهَا بِالقَطِيْعِ فَأَجْذَمَتْ وَقَدْ خَبَّ آلُ الأمْعَزِ المُتَوَقِّدِ [3]

يقول :إذا قال القوم : من فتى لهذا الأمر الجليل ؟ ظننت أنّني عُنِيت بذلك فبادرت إليه ، و لم أتثاقل عنه . و أقبلت على ناقتي بالسوط فأسرعت بي حال اضطراب السراب في المكان الغليظ الكثير الحصى المتوقد بالحر.[4]

أبرز طرفة فخره بنجدته المستغيث في حكايته قول قومه الواقع شرطا لـ " إذا " التي تستخدم في الشرط المقطوع بوقوعه ليُشعِر بتحقق جملة المقول : " مَنْ فَتَىً ؟ " و كثرة ورودها على ألسنة القوم كلّما ألمّ بهم خطب. و في حذف فعل الشرط للدلالة عليه بـ " قالوا " تسليط الأنظار على الفاعل " القوم " للإشعار بأنّ

---

[1] ديوان طرفة شرح الأعلم الشَّنْتَمَريّ : ٤١ .

[2] المُتَبَلِّدُ : الذي يتردد متحيّرا . يُقال : تبلّدَ ، أي : تردّد متحيّرا . ينظر: لسان العرب " مادة: بلد " جـ٣ : ١١٧ .

[3] القطيع : السوط يُقْطَعُ من جلد . الإجْذَام : السرعة في السير . و أجْذَمَ البعير في سيره : أسرع . الخِبُّ : هيجان البحر و اضطرابه . و المراد بقوله : و قد خَبَّ : قد جرى واضطرب . الآل : السراب . الأمْعَز : الأرض الحَزْنَةُ الغليظة ذات الحجارة . ينظر: لسان العرب " مادة : قطع " جـ٨ : ٣٣٥ . و " مادة :جذم " جـ١٢ : ١٠٢ . و " مادة : خبب " جـ١ : ٤٠٢ . و " مادة : أول " جـ١١ : ٤٣ . و " مادة : معز " جـ٥ : ٤٧٧ . و ديوان طرفة شرح الأعلم الشَّنْتَمَريّ : ٤١ .

[4] ينظر : ديوان طرفة شرح الأعلم الشَّنْتَمَريّ : ٤١ .

الشاعر هو فارسهم الأوحد ، ورجلهم الأوّل ، فالقوم كلّهم لا يشذ واحد منهم يستنجدون به إذا أصابهم خطب وألمّت بهم فجيعة. والاستفهام في جملة المقول : " مَنْ فَتَىً ؟ " على حقيقته ينبعث منه معنى التحضيض والتهييج على الاتّصاف بصفات الفتوّة والشجاعة والمروءة لدفع الأخطار المحدقة بالقوم والتصدي لها . وكأنّ المُسْتَفْهِم وهم القوم من شدة البلاء الذي أحاط بهم ، و صعوبة الخطر المحدق بهم ذُهِلُوا فلم يتبيّنوا الفتى ذا المروءة و النجدة الذي يدفع عنهم البلاء ويرد الخطر . و أكّد هذا تنكير " فتى " فهو تنكير للنوعيّة ، فهو فتى ليس كالفتيان الذين يعرفهم القوم ، وإنّما هو فتى من نوع آخر في شجاعته ومروءته . وهنا تعلو نبرة الاعتزاز و الاعتداد بالنفس من الشاعر في إيثاره ضمير النفس في قوله : " خِلْتُ أَنَّنِي عُنِيْتُ . " و يؤكد هذا الاعتداد بالنفس الفعل : " خال " فهو من أفعال القلوب التي تفيد في الخبر رجحانًا أو يقينًا.[1] والسياق – هنا– يمحّضه لليقين ، فالشاعر يستيقن أنّه الفتى الذي ينشده القوم لنجدتهم ، و في هذا زهو بالنفس أيّ زهو و الفعل " خال " قد ورد صراحة في شعر طرفة بمعنى اليقين في قوله يهجو بني المنذر :

هُمُ سَوَّدوا رَهْواً تَزَوَّدَ في اسْتِه مِنَ الماءِ خالَ الطَّيْرَ وارِدةً عَشْرا

في هذا البيت يسخر طرفة من بني المنذر ؛ لأنّهم سوّدوا عليهم ملكا أحمق غبيّا . وقد مثّل الشاعر حماقته في صورة مضحكة موجعة إذ يشبهه بطير الرَّهْو الأحمق الذي حسب أنّ الطير لا ترد الماء إلا بعد عشرة أيام فتزوَّد بالماء في اسْته خوف العطش.[2]

---

[1] ينظر : دليل السالك إلى ألفية ابن مالك لـ / عبد الله بن صالح :٢٩٠ . ط– الأولى ، دار المسلم ١٩٩٨م .

[1] طرفة بن العبد حياته وشعره . د/ محمد علي الهاشمي : ١٤٨ ، بتصرف .

وتأكيد جملة : " أنَّنِي عُنِيْتُ " إمّا أن يكون تنزيلا للقوم منزلة المنكر أو الشاك في كون الشاعر فتاهم وفارسهم لما بدا عليهم من ذهول ودهشة ممّا أصابهم ، وأحلّ بهم من خطر جعلهم يسألون عن الفتى منكَّرًا : " من فتى ؟ " وكأنّهم لا يعرفونه . وإمّا أن يكون الشاعر قد صاغها مؤكّدة كما أحسّها مؤكِّدا بها زهوه بنفسه وأنّه الفتى المعنيّ . وهذا هو الأقرب للسياق القبلي الذي افتخر فيه بشجاعته متجسّدة في ركوبه المخاطر والأهوال في قلب الفلوات . ومتفق – أيضا– مع ما جاء من إبرازه ذاتَه في اعتداد و شموخ في أبياته الأخيرة من معلّقته والتي منها قوله :

أنا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الذي تَعْرِفُونَهُ خِشَاشٌ كَرَأسِ الحَيَّةِ المُتَوَقِّدِ

فالقوم يعرفون أنّه خفيف سريع المضَاء في الأمور التي تحتاج إلى حسم [1].

يقول العلامة الدكتور أبو موسى : " و هناك ضروب من التوكيد لا ينظر فيها إلى حال المخاطب ، وإنّما ينظر فيها المتكلِّم إلى حال نفسه و مدى انفعاله بهذه الحقائق ، وحرصه على إذاعتها و تقريرها في النفوس كما أحسّها مقررة أكيدة في نفسه ." [2]

[2] ينظر : ديوان طرفة شرح الأعلم الشَّنْتَمَريّ : ٥٣ .

[3] خصائص التراكيب . د/ محمد أبو موسى : ١٢٧ .

ويوغل الشاعر في تأكيد اعتداده بنفسه و زهوه بها في حذف المسند إليه وبناء الفعل للمجهول في قوله : " عُنِيتُ " . فقد سلّط الأنظار على عناية القوم به ، فهو المعنيّ بسؤالهم : " من فتى ؟ " لا غيره . وللإشعار – أيضا – بسرعة نجدته لهم والذود عنهم. و قد أكّد الشاعر تحقق سرعة نجدته قومه بأمور هي : مجئ جواب الشرط ماضيا لفظا مستقبلا معنى في قوله : " خلت ". و ما أشعرت به " الفاء " في قوله : " فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدِ " من الإسراع في نفي الكسل و التبلّد . و الفصل لشبه كمال الاتصال في قوله : " أَحَلْتُ عَلَيْهَا بِالقَطِيْعِ " ، فإنّ نفي طرفة الكسل والتبلد عن نفسه قد أثار سؤالا : ماذا فعلت بعد دفعك الكسل والتبلد ؟ فكان الجواب : " أحلت ... " ، أي : أقبلت على ناقتي بالسوط . فالاستئناف البياني – هنا – أبرز سرعة استجابة طرفة لنجدة قومه ، فالانتقال المفاجئ من حال إلى حال ، و التحول السريع المستفاد من الفعل : " أحلت "[1] المتصدر الاستئناف البياني الموحي باستقلالية الخبر يشير إلى أنّ الشاعر طوى كسله و تبلده طيًّا وبدأ رحلة نجدة قومه. و إقبال طرفة على ناقته بالسوط لا يناقض ما جاء في سياق فخره بترويض ناقته فناقته مروّضة تسرع متى شاء لها ذلك ، و لكن من شدة حرصه على الإسراع في نجدة قومه جعل سوطه يهوي على ناقته طلبا لسرعتها القصوى التي تبديها بالفعل دون إيجاعها بالسوط . وهذا ما أكّدته " الفاء " في قوله " فأجذمت " ، أي: أسرعت ، فـ " الفاء " للترتيب والتعقيب ؛ و لذلك اتّصل بها الحدث الذي دخلت عليه بسابقه دون إمهال ، فحدث إسراع الناقة موصول بحدث الإقبال عليها بالسوط دون إمهال ممّا يؤكّد سرعة استجابة الناقة لرغبة الشاعر في إسراعها ، " فالفاء " طوت المسافة الزمنيّة بين رغبة الشاعر وتحققها . " فإذا قلت

---

[1] حال الشئ حَوْلا و حُؤولا و أحال ... كلاهما : تحوّل من حال إلى حال . حال الشخص يحول : إذا تحوّل . ينظر : لسان العرب " مادة : حول " ، جـ١١ : ٢٢٦ .

: قدِم زيد فعلي ، أفادت " الفاء " أنّ قدوم عليّ كان عقب قدوم زيد بلا مهلة ، أي : أنّه كان موصولا به ، فالحدثان يتصل رأس ثانيهما بعقب سابقه ."[1] و لو كانت ناقة متمرّدة غير مروّضة ما بادرت بالسرعة حين أقبل عليها بالسوط . و قد يكون الإقبال عليها بالسوط تخويفا لها وتذكيرها بما كان أيّام ترويضها وليس لضربها به، فقد جاء في لسان العرب:" أحال عليه بالسوط يضربه، أي : اقبل "[2] ، ولم يذكر – هنا – فعل الضرب ، ويؤكد هذا قول طرفة [3]:

وإنْ شئتُ لَمْ تُرْقِل و إنْ شئتُ أرْقلتْ مَخافَةَ مَلْوِيٍّ مِنَ القَدّ مُحْصَدِ

فهي تسرع لخوف تطبّعت به منذ أيّام ترويضها الأولى . وتسمية السوط " بالقطيع " مشعر بقوة السوط فهو مقطوع من الجلد ، وهو السوط نفسه الملوِيّ ، أي : المفتول شديد الفتل المقطوع من الجلد في قوله : " مَخَافَةَ مَلْوِيّ ... . " و التعبير عن السوط بـ " القطيع " فعيل بمعنى مفعول ، أي : المقطوع من الجلد ، والتعبير عن السرعة بمادة : " جذم " التي تعني : القطع [4] ، يتناغم مع مشاعر الشاعر و رغبته الملحاحة في سرعة قطع المسافة للوصول إلى موقع الحدث ، و دفع خطره عن قومه . ثمّ تأتي الجملة الحاليّة المؤكّدة بـ " قد " في قوله : " وَ قَدْ خَبَّ آلُ الأمْعَزِ المُتَوَقِّدِ " كناية عن شدة الحر وقت الهاجرة ، فالسراب خادع ، و أديم الأرض يتوقد ، إنّها لحظات صعبة على الشاعر و ناقته ، ولكنّه الفتى المعنيّ من قومه في كل الأزمات لنجدتهم .

---

[1] دلالات التراكيب . د/ محمد أبو موسى : ٣٣٩ . ط– الرابعة ، مكتبة وهبة ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨م

[2] لسان العرب جـ١١ : ٢٣١ .

[3] ديوان طرفة شرح الأعلم الشّنْتَمَريّ : ٤٠ .

[4] لسان العرب جـ١٢ : ١٠٢ .

وجاء فخره- أيضا- بنجدته المستغيث في سياق فخره بشرب الخمر والتمتع بالنساء يقول[1] :

وَكَــرِّي إذا نَــادَى المُضَــافُ مُحنَّبــاً كَسِــيدِ الغَضَــا نَبّهْــتَهُ المتَــوَرِّدِ [2]

يقول:أُرْجِعُ إذا ناداني المستغيث الذي أحاط به عدوه فرسا في يده انحناء يسرع في عدوه إسراع ذئب يعيش بين شجر الغضا أثاره الإنسان، و هو يجد في طلب الماء من شدة الظمأ.[3]

عطف الجملة المخبر بها عن لذته بنجدته المستغيث : " وَ كَرِّي إذا نَادَى المُضَافُ مُحنَّباً " على الجملة المخبر بها عن لذته بشرب الخمر : " فَمِنْهُنَّ سَبْقِي

---

[1] ديوان طرفة شرح الأعلم الشَّنْتَمَريّ : ٤٦ .

[2] الكرُّ : الرجوع ، يقال : كرَّ يكُرُّ كرًّا : إذا عطف و رجع . المُضَاف : المُلْجَأ المُحْرَج المُثْقَل بالشر . يقال : أضفته إلى كذا ، أي : ألجأته . ومنه المُضَاف في الحرب ، وهو الذي أحيط به . المُحَنّب: الفرس الذي في يديه انحناء وهو ممّا يمدح به . الحَنَبُ والتَّحْنِيبُ : احديدابٌ في وظِيفَيْ يَدَي الفرس ، وليس ذلك بالاعوجاج الشديد ، وهو ممّا يوصف صاحبه بالشدة . وقيل : التحنيب في الخيل : بُعْدُ ما بين الرِّجْلين وهو مدح . السِّيد : الذئب . الغَضَا : الشجر ، و يزعمون أنّه أخبثُ الشجر ذئابا . المُتورِّد : الذي يطلب الورد. ينظر : لسان العرب " مادة : كرر " جـ٥ : ١٦٠ . و " مادة : ضيف " جـ٩ : ٢٥٢ . و "مادة : حنب " جـ١ : ٣٩٣ ، ٣٩٤ . و " مادة : سيد " جـ٣ : ٢٨٥ . و " مادة : غضا " جـ١٥ : ١٤٨ . و " مادة : ورد " جـ٣ : ٥٦١ . وينظر : ديوان طرفة شرح الأعلم الشَّنْتَمَريّ : ٤٦ .

[3] ينظر : ديوان طرفة شرح الأعلم الشَّنْتَمَريّ : ٤٦ . و شرح المعلقات السبع للزوزني : ٦٠ . ط- الدار العالمية ١٩٩٣ .

العَاذِلاتِ بشَرْبَةٍ "[1] لما بين الجملتين من التوسط بين الكمالين ، فقد اتّفقتا في الخبريّة لفظا و معنى. وحذف المسند (خبر المبتدأ الجار والمجرور) من الجملة الثانية : " وَ كَرِّي إذا نَادَى ... " لدلالة الأول عليه ، أي : ومن الخلال الثلاث التي أستمتع بها و أبقي على حياتي من أجلها كَرِّي إذا ... . وعطف الجملة على الجملة – هنا – بتقدير خبر الثانية (المسند الجار والمجرور المحذوف) يوحي باستقلاليّة اللذّة، وأنّ لها خصوصيّة تميّزها عن أختيها : الخمر،والنساء. ويلاحظ أنّ طرفة قد وسّط لذّته بنجدته المستغيث بين لذتيه : الخمر،والنساء . و لعلّ السر في هذا هو إدراكه آفة الخمر وأنّها تذهب بالعقل ، فيقع صاحبها في حماقات تذهب بمروءته . و إدراكه أنّ النساء يعشقن الفارس ذا المروءة و النجدة لما عرف من البيئة العربيّة وقتئذ من غارات قبليّة ينتج عنها قتل وسبي النساء . وآثر طرفة التعبير بمصدر الفعل " كَرَّ " دون مصدر الفعل " أرجع " لما في مادة " كَرّ " من تكرار الرجوع لنجدة المستغيث ، يقول ابن فارس :" الكاف والراء أصل صحيح يدل على جمع وترديد. من ذلك كررت ، و ذلك رجوعك إليه بعد المرة الأولى ."[2] ولهذا جاء نداء المُضَاف (المستغيث) شرطا بـ " إذا " ليؤكد تحققه و حدوثه كثيرا . و إيثار ضمير النفس المتمثل في ياء المتكلم و إضافته إلى الكرّ يشعر بالذاتيّة والأنا ، فهو كر خاص بالشاعر لا يشاركه فيه أحد. وما يحمله لفظ " المُضَاف " في قرار مدلوله من بيان هيئة وحال هذا المستغيث ، فقد أحاط به الأعداء ، وسقط بين خيلهم وبينهم منهار القوى متيقّنا بهلاكه مهما استغاث ، فلا أحد يقوى على إغاثته و نجدته . فقد جاء في لسان العرب : المُضَاف : هو الواقع بين الخيل

---

[1] في قوله : " فَمِنهُنَّ سَبْقِي العَاذِلاتِ بِشَرْبَةٍ *** كُمَيْتٍ مَتَى مَا تُعْلَ بالمَاءِ تُزْبِدِ ." ديوان طرفة شرح الأعلم الشَّنْتَمَريّ : ٤٦ .

[2] مقاييس اللغة لابن فارس " مادة : كر " جـ٥ : ١٢٦ .

والأبطال و ليست به قوة ، وأضفته إلى كذا : ألجأته ، ومنه المضاف في الحرب وهو الذي أحيط به .[١] وما ألقى به مدلول لفظ " المُضَاف " من ظلال يبرز مروءة الشاعر و إسراعه في نجدة المستغيث فور طرق الاستغاثة أذنيه غيرَ هيّاب ممّن أحاط بالمستغيث من الأبطال . وقد حرص طرفة على بيان مقدار السرعة في استجابته للمستغيث ، وأنّها سرعة فائقة بأمرين :

الأوّل : حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه في قوله : " مُحَنَّبًا " ، أي: فرسا محنّبا. وهو وصف محمود في الفرس " فالمحنّب : الفرس البعيد ما بين الرجلين ... ويقال : إنّ الحنب : اعوجاج في الساقين ."[٢] و الصفة سواء كانت بمعنى البعد لما بين الرجلين ، أو بمعنى الاعوجاج ، فهي صفة محمودة في الفرس تميّزه في سرعته على غيره .

الثاني : تشبيه فرسه في سرعته بذئب اجتمع له ثلاث خلال تزيد من سرعته وشدة عدوه : إحداها : كونه يعيش بين شجر الغضا ، و ذئب الغضا أخبث الذئاب . والثانية : إثارة الإنسان إيّاه . والثالثة : وروده الماء .[٣]

وجاء فخره بنجدته المستغيث في سياق حديثه عن خذلان ابن عمه له ، فقد طلب طرفة المعونة من ابن عمه ، فضنّ عليه وبخل بالمعونة والمال ، ممّا أثار في نفس طرفة نوازع الفخر بإعانة ونجدة المستغيث ، يقول[٤] :

وَقَــرّبْتُ بِالقُــرْبَى وَ جَــدِّكَ إنَّنِــي مَتَــى يَــكُ عَهْــدٌ للنَّكِيثَــةِ أَشْهَــدِ [١]

---

[١] ينظر : لسان العرب " مادة : ضيف " جـ٩ : ٢٥٢ .

[٢] مقاييس اللغة لابن فارس " مادة : حنب " جـ٢ : ١٠٨ .

[٣] ينظر : شرح المعلّقات السبع للزوزني : ٦٠ .

[١] ديوان طرفة شرح الأعلم الشَّنْتَمَريّ : ٥٠ ، ٥١ .

وَإِنْ أُدْعَ للجُــلّى أَكُــنْ مِــنْ حُماتهــا وإنْ يأتِـكَ الأعداءُ بالْجَهْدِ أجهَدِ [٢]

وإن يقــذِفوا بالقَــذْعِ عِرْضَــكَ أسْــقِهِمْ بشِرْبٍ حِياضِ الْمَوتِ قبلَ التَّهَدُّدِ [٣]

صدر طرفة الشرط بـ " إنْ " التي تفيد عدم الجزم بوقوع الشرط ، وندرة وقوعه . وهذا يعني أنّ الشاعر لا يجزم بدعوته للجلّى ، أي : الأمر العظيم الذي ينزل بالقوم . أو أن دعوته للجلّى نادرة . وكذلك لا يجزم بتحرّش الأعداء بابن عمه ، وسبهم وشتمهم عرضه وندرة ذلك . وكل هذا لا يتلاءم مع مقام الفخر الذي يقتضي استعمال " إذا " الشرطيّة دون " إنْ " . ويبدو أنّ دخيلة الشاعر التي تحمل السخط على ابن عمه الذي خذله و لم ينجده طفت على السطح فأضعفت فخر الشاعر بنجدة المستغيث ، وجعلته نادرا أو في حكم العدم وكأنّ الشاعر يبتغي من فخره هذا تعرية ابن عمه أمامه من صفة النجدة ، وتعزية نفسه أمام خذلان ابن عمه له . فالشك الذي أفاضت به " إنْ " يحكي واقعا نفسيّا للشاعر يؤكّده بناء الفعل: " أدْع " للمجهول ، وعموميّة أسلوب الشرط :" مَتَى يَكُ عَهْدٌ للنَّكِيثَةِ أَشْهَدِ، وَ إِنْ أُدْعَ للجُلّى أَكُنْ مِنْ حُماتها." فقد غاب في نفس الشاعر ابنُ عمه، وإن بقيت الدعوة قائمة فهي دعوة عامّة لكل مستغيث يلبيها ، وإن شك في تلبيتها لابن عمّه .

وتسمية النفس نكيثة في قوله : " مَتَى يَكُ عَهْدٌ للنَّكِيثَةِ أَشْهَدِ " جاء ملائما لمقام الفخر الذي يقتضي المبالغة في شدة الأمر النازل بالقوم ، وإنّه يجهد النفس وينقض قواها ويفنيها ، فلا يقوم به إلا فارس القوم ذو المروءة والنجدة .

---

[٢] النَّكِيثَة : الأَمر الجليل . و قيل :النَّكِيثَةُ النَّفسُ ، وسميت النفس نَكِيثَةً لأَن تكاليف ما هي مضطرة إليه تَنْكُثُ قُوَاها والكِبَرُ يفنيها فهي منكوثة القُوَى بالنَّصَبِ والفناء . ينظر : لسان العرب " مادة : نكث " جـ٢ : ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

[٣] الجُلَّى : الأمر العظيم . ينظر : لسان العرب " مادة : جلل " جـ ١١: ١٣٩ .

[٤] القَذْعُ : الخَنى والفُحْشُ . ينظر : لسان العرب " مادة : قذع " جـ٨ : ٣١١ .

فقد جاء في لسان العرب : " النَّكِيثَةُ النَّفسُ ، ... و سميت النفس نَكِيثَةً ؛ لأَن تكاليف ما هي مضطرة إِليه تَنْكُثُ قُوَاها ، و الكِبَرُ يفنيها ، فهي منكوثة القُوَى بالنَّصَبِ والفناء ."[1] ولا يخفى ما في لفظ " عهد " من تعريض بابن عمّ الشاعر الذي نقض عهد القرابة والمروءة ، وخالف العادات والتقاليد والعرف في مناصرة القريب لقريبه و ابن القبيلة لأخيه في القبيلة .

و لقد أعقب طرفة عموم نجدته بتخصيصها لابن عمّه في قوله : " وإنْ يأتِكَ الأعداءُ بالْجَهْدِ أجهَدِ ، و إن يقذِفوا بالقَذْعِ عِرْضَكَ أسْقِهِمْ ." و إذا تأملنا الشرط بـ " إنْ "– هنا – شعرنا بقلة وندرة تعرض ابن عمه لهجمة الأعداء ، وندرة تعرضه – أيضا – لشتم وسب عرضه وفي هذا مدح جليّ لابن عمه ، وتقليل من شأن الشاعر ، وذلك بندرة اللجوء إليه ، بل عدم الاحتياج واللجوء إليه في المستقبل .وهذا غير مناسب لمقام الفخر بصفة نشدها الشاعر في ابن عمه فلم يجدها . و قد تصب هذه الندرة والقلة لوقوع الشرط في المستقبل في إناء فخر الشاعر ؛ لأنّ المتحدّث عنه هو ابن عمه ، فإحجام الأعداء عن مهاجمته ، وقذف عرضه كان خوفا من الشاعر . و الحقيقة التي أراها أنّ الشاعر قد سيطرت عليه فطرته البدويّة التي استدعت " إنْ " الشرطية لتبدي ما في نفس الشاعر من شك في نصرته لابن عمه ؛ وقد أكد هذا ما أفاضت به بنية الشرط من مشاعر الشاعر الناقمة على ابن عمه ، وذلك عن طريق التعبير بالإتيان دون المجئ ، وتعريف العِرْض بإضافته إلى ضمير ابن العم ، والتعبير عن الشتم بالقذع . فالتعبير بالإتيان دون المجئ و إلصاقه بضمير المخاطب (ابن عمّ الشاعر) يفصح عن رغبة الشاعر في أن يُبْتلى ابن عمه و يطلب منه النجدة ؛ ليعرف قيمته ، و أنّه يفضله في النجدة و المروءة . فالتعبير بالفعل " أتى " يفيد المجئ

[1] لسان العرب " مادة : نكث " جـ٢ : ٢٢٤ .

بسهولة .[1] فإسناد الإتيان إلى العدو : " و إنْ يأتِكَ الأعداءُ " ، و تعريفُ الشاعر العرضَ بإضافته إلى ضمير ابن عمّه في قوله : " وإن يقذِفوا بالقَذْعِ عِرْضَكَ أسْقِهِمْ "، و التعبير عن الشتم بالقَذْع الذي يشعر بأنّ الشتم و السب بلغ الذروة في السوء ، فقد جاء في لسان العرب :" القذع : الفحش من الكلام الذي يقبح ذكره ونشره ."[2] كل هذا يعكس دخيلة الشاعر الناقمة على ابن عمّه ، و أنّ فخره بنجدة المستغيث لم يمنع من طفوّ رواسب نفسه المكلومة من خذلان ابن عمه له . و هذا ممّا أضعف مصداقيّة فخره بنجدة المستغيث الوارد في سياق الحديث عن خذلان ابن عمه له .

[1] ينظر : المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني : ٩١ . ط – المكتبة التوفيقيّة .

[2] لسان العرب " مادة : قذع " جـ٨ : ٣١١ .

رابعاً - الفخر بالكرم .

وفي سياق حديث طرفة عن إعانته قومه عند حاجتهم إليه جاء فخره بكرمه يقول[1] :

و لستُ بِمِحْلالِ التِلاعِ لِبيتَةٍ ولكنْ مَتى يَسْتَرْفِد القومُ أَرْفِدِ [2]

وإنْ تَبْغِني فِي حَلقَةِ القَوْمِ تلقَني وَإنْ تَقْتَنَصْني في الْحَوانيتِ تصْطَدِ

مَتَى تأتِنِي أُصْبَحْكَ كَأْساً رَوِيّةً وإنْ كنتَ عَنْهَا ذَا غِنَىً فاغْنَ وازْدَدِ

وإنْ يَلْتَقِ الْحَيُّ الْجَميعُ تُلاقِني إلى ذِرْوَةِ البَيتِ الكريم الْمُصَمَّدِ [3]

يقول : إنّه كريم أيّام السلم لا يستتر ولا يتوارى ولا يهرب بماله من السائلين واللاجئين. فهو لا ينزل الأماكن الخفية التي لا ترى فيها المنازل ، و إنّما ينزل الأماكن الظاهرة فيعطي إذا سُئِل ، ويدل السائل على الأماكن التي يستطيع أن يجده فيها إذا احتاج إليه ، فيستطيع أن يجده في ساعة الجِدّ في حلقة القوم حيث يجتمعون في ناديهم للمحادثة و المشاورة ، و يستطيع أن يجده في غير ساعات

---

[1] ديوان طرفة شرح الأعلم الشَّنْتَمَريّ : ٤٢ ، ٤٣ .

[2] التِّلاع : مسايل الماء يسيل من الجبال حتى ينصب في الوادي . الرِّفْد (بالكسر) : العطاء يقال : رَفَدَهُ يَرْفِدُهُ رَفْدًا : أعطاه.ينظر : لسان العرب " مادة : تلع " جـ٨ : ٤٢ .و" مادة : رفد " جـ٣ : ٢٢٣

[3] الصَّمَد : السيد المُطاع الذي لا يُقْضى دونه أمر. وقيل : الذي يُصْمَدُ إليه في الحوائج ، أي: يُقْصَد. و المُصَمّد : المقصود . ينظر : لسان العرب " مادة : صمد " جـ ٣ : ٣١٧ .

الجِدّ في الحانات عند هؤلاء الخمّارين. و إنّ طالبه متى سأل عنه فسيعلم أنّه من أشرف البيوتات و أكرمها .[1]

قد ترادفت أساليب الشرط بـ " إنْ و متى " مؤكدة فخر الشاعر بكرمه . و أسلوب الشرط يُسْهِم في إيقاظ المتلقي ، وإثارة انتباهه ، ومشاركته للمتكلم ؛ لأنّ المتلقي في سماعه لفعل الشرط يكون متشوّقا منتظرا لجوابه الذي سرعان ما يتمكن من نفسه فضل تمكن . وهذا مراد الشاعر في تأكيد فخره بكرمه . فقد شاع في أساليب الشرط ضمير النفس المتمثل في " تاء " الفاعل و" ياء " المتكلّم في قوله : " لستُ ، تبغني ، تلقني ، تقتنصني ، تأتني ، تلاقني . " وهذا ممّا ينبئ باعتزاز الشاعر بذاته ، و أنّ كرمه نابع من هذا الاعتزاز وأمَارة على استقلال ذاته و مكانتها وحضورها . وقد أردف الشاعر التصريح بكرمه : " مَتى يَسْتَرْفِدِ القومُ أَرْفِدِ " بجمل الشرط والجواب المُبَيِّنة عن أماكن وجوده :

" وإنْ تَبْغِنِي فِي حَلقَةِ القَوْمِ تلقَنِي، وَإنْ تَقْتَنِصْنِي في الْحَوانيتِ تصْطَدِ " كناية عن كرمه ؛ لأنّ العثور عليه في هذه الأماكن يستلزم العطاء منه بسخاء . فقد جعل طرفة السؤال عن مكانه والوصول إليه طريقا إلى بذله و عطائه بسخاء للمحتاجين . والكناية من سماتها تقديم الدعوى بدليلها ، يقول الإمام عبد القاهر : " إنهم يرومون وصف الرجل و مدحه و إثبات معنى من المعاني الشريفة له ، فيدعون التصريح بذلك ، ويَكْنُون عن جعلها فيه بجعلها في شئ يشتمل عليه ويتلبس به."[2] والتعبيرعن الحلول (المنفي)بصيغة المبالغة " مفعال " في قوله : "

---

[1] ينظر : حديث الأربعاء ، د/ طه حسين ، جـ ١ : ٦١ ، ٦٢ . ط- الثالثة عشرة ، دار المعارف .

[1] دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود محمد شاكر : ٣٠٦ . ط- الثالثة ، مطبعة المدني ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .

و لستُ بِمِحْلالِ التِلاعِ لِبِيتَةٍ " يؤكد استعداد طرفة الدائم لإكرام الضيف ، فهو ظاهر له أينما حلّ لا يستتر عنه ، متى يسأله يعطه سؤله ، وهذا حاله مع كل الناس ؛ ولذلك حسُن مع تسليط النفي على صيغة المبالغة " مفعال " في قوله: " و لستُ بِمِحْلالِ" إسناد الاسترفاد للقوم كافة و ليس لفرد في قوله : " مَتى يَسْتَرْفِد القومُ أَرْفِدِ ." و بالغ طرفة في كرمه باستعارة الاقتناص للعثور عليه في قوله : " وَ إنْ تَقْتَنَصْني في الْحَوانيتِ تصْطَدِ ." وهذه الاستعارة مرآة عاكسة فوز الباحث عنه بصيد ثمين ، و هو الشاعر بما يجود به من العطاء . و قد زاد من عمق هذه الاستعارة و دلالتها على تبحر شاعرنا في كرمه ترشيحها بقوله : " تصطد ." وما عكسته الاستعارة التبعية في الفعل " تقتنصني" عضّدته الاستعارة المكنيّة المتمثلة في إيقاع الاقتناص (الصيد) على ضمير المتكلم ؛ فالشاعر صيد ثمين للعاثر عليه بما يبذله له من عطاء وفير .

وأكد شاعرنا المبالغة في كرمه الذي أنبأت به الاستعارتان بأسلوب الشرط في قوله :

مَتَى تأتِنِي أُصْبَحْكَ كَأْساً رَوِيّةً وإنْ كنتَ عَنْهَا ذَا غِنًى فاغنَ وازْدَدِ

فقد تلاءم مع سياق المبالغة في الكرم التعبير بالإتيان دون المجئ ؛ للدلالة على سهولة الوصول إليه ، وهذا شأن الكرام ، مكانهم معروف لذوي الحاجات والسائلين . و تنكير " كأسا " يفيد التعظيم ، أي : أنها كأس عظيمة ؛ و لذلك وصفها بأنها " رويّة ." ثمّ أردف هذا الشرط بآخر مبالغة فوق المبالغة : " وإنْ كنتَ عَنْهَا ذَا غِنَىً فاغنَ وازْدَدِ ." فإنّ كرمه لا يصل إلى المحتاجين والفقراء فقط ، بل يتعداهم إلى ذوي الثراء والغنى . ونجح الشاعر في تدرّجه بالمبالغة في كرمه خلال أساليب الشرط حتى وصل بها إلى ذروتها وذلك بنسبته إلى البيت الكريم الذي يقصده ويلجأ إليه المحتاجون ، يقول :

وإنْ يَلْتَقِ الْحَيُّ الْجَمِيعُ تُلاقِنِي إلى ذِرْوَةِ البَيتِ الكريم الْمُصَمَّدِ

فإنّ في قوله : " إلى ذِرْوَةِ البَيتِ الكريم الْمُصَمَّدِ " إشعارا بالاعتداد بالذات ، و الفخر بطيب الأُرومة ، وشرف البيت الذي يصمِد إليه المحتاجون .

وفي سياق فخره بتسلحه يروي طرفة قصة هي كناية عن كرمه ودليل عليه يقول[1] :

وبَرْكٍ هُجُودٍ قَدْ أثارَتْ مَخافَتي نَوادِيَهُ أمشي بعَضْبٍ مُجَرّدِ [2]

فَمَرّت كَهاةٌ ذاتُ خَيْفٍ جُلالَةٌ عَقيلَةُ شَيخٍ كالوَبيلِ يلَنْدَدِ [1]

---

[1] ديوان طرفة شرح الأعلم الشَّنْتَمَريّ : ٥٥ ، ٥٦ .

[2] البَرْك : جماعة الإبل الباركة . الهُجُود : النيام . يقال : هجَدَ يَهْجُدُ هُجُودًا : نام . العَضْب : السيف القاطع . يقال : عَضَبَه يَعْضِبُه عَضْبًا : قطعه . ينظر : لسان العرب " مادة : برك " جـ١٠ : ٤٧٩ . و "مادة : هجد " جـ٣ : ٥٢٩.و" مادة : عضب " جـ١ :٧١١ .

يَقــولُ وَقَــدْ تَــرّ الوَظيــفُ وسَــاقُها أَلَسـتَ تَـرى أن قـد أَتَيـتَ بِمُؤيِـدِ [٢]

وَقَـــالَ: أَلَا مَـــاذَا تَـــرَوْنَ لِشَـــارِبٍ شَـــديدٍ عَـــلَيْكُم بغْـــيُهُ مُتَعَـــمِّدِ

فقَـــالَ: ذَرُوهُ إنَّـــما نَفْعُـــهَا لَـــهُ وَإلّا تكُفّــوا قاصــيَ البَــرْكِ يَــزْدَدِ

فَظَـــلّ الإمـــاءُ يَمْـــتَلِلْنَ حُـــوَارَهَا ويُسْعَى علَينا بالسَّديفِ الْمُسرْهَدِ [٣]

---

[١] الكَهَاةُ : الناقة السمينة ، وقيل : الناقة العظيمة . الخَيْف : جلد الضَّرع ، وناقة خيفاء : واسعة جلد الضرع . الجُلالة : الناقة العظيمة . الوبيل : العصا الغليظة الضخمة . اليَلَنْدَد : شديد الخصومة . ينظر: لسان العرب " مادة :كها " جـ١٥ : ٢٧١. و "مادة : خيف " جـ٩ : ١٢٤. و " مادة : جلل " جـ١١ :١٤١ . و " مادة : وبل " جـ ١١ : ٨٦١ . و " مادة : لدد " جـ٣ : ٤٧٩ .

[٢] تَرَّ الشيءُ يَتِرُّ ويَتُرُّ تَرًّا وترورًا : بان وانقطع بضربه . الوظيف : هو مابين الرُّسْغ والساق في الرجل ، و في اليد ما بين الرُّسْغ و الذراع . المؤيد : الأمر العظيم والداهية . ينظر : لسان العرب " مادة : ترر " جـ٤ : ١٠٣. و " مادة : وظف " جـ٩ ٤٢٧ . و " مادة : أيد " جـ٣ :٩١ .

[٣] المَلُّ والمَلَّة : الرماد الحار الذي يُحْمَى ليُدْفَن فيه الخبز ليَنْضَج . الحُوَار: ولد الناقة من حين يوضع إلى أن يفطم ويفصل فإذا فصل عن أمه فهو فصيل. السَّدِيف : السّنام المُقَطَّع. المُسَرهد: الحسن الغذاء.

ينظر : لسان العرب " مادة : ملل " جـ١١ : ٧٥٠. و " مادة : حور " جـ٤ : ٢٥٨ و " مادة : سدف" جـ٩ :١٧٨ . و" مادة : سرهد " جـ٣ : ٢٦٢ .

تمثّل المشهد الأوّل في القصة في خشية الإبل من طرفة لمّا مشى بسيفه البتّار بينها ، إذ عرفت منه عادة عقرها كلّما ألمّ بساحته ضيف .[1] فقد برزت في هذا المشهد ذات الشاعر حاضرة قويّة متمثلة في إضافة الفاعل " مخافة " إلى ضمير المتكلم " الياء " في قوله : " أثارَتْ مَخافَتي ." و إيقاع فعل الإثارة على مفعوله " نواديها " التي تعني أوائل الإبل وما سبق منها ، يقال : لا يندك بُنَيّ أمر تكرهه ، أي : لا يسبق إليك مني ، و إنّما خص النوادي ؛ لأنّها أبعد منه عند فرارها ، فهو لا يفلت من عقره ما قرب منه من النوق ولا ما شذّ فندّ .[2] والجملة الحاليّة المتصدرة بالفعل المضارع : " أمشي بعَضْبٍ مُجَرّدِ" جعلت المعنى حاضرا بين يديك ، فالحدث لا تسمعه فقط ، بل تراه بعينك أيضا ، " فإنّ الفعل المضارع يدل على استحضار الصورة ،أي : أنّ صيغته تحمل الحدث من قلب الزمان الغابر ، لتضعه أمام الحاضر الراهن في جلاء و وضوح ؛ و لهذا تراهم يؤثرون صيغة المضارع عند ذكر الحدث الأهم ."[3] فالجملة الحاليّة المتصدرة بالمضارع جعلتك كأنّك ترى طرفة وهو يمشي بين نوق ابن عمومته شاهرا سيفه ، وقد بدت خشية الإبل ظاهرة جليّة منه ؛ إذ عرفت منه هذه العادة عادة عقرها إذا حضره ضيف .والمشهد كلّه كناية عن كرم طرفة ودليل عليه ؛ لأنّ الكناية من سماتها تقديم الدعوى بدليلها.

---

[1] ينظر : طرفة بن العبد حياته وشعره . د/ محمد علي الهاشمي : ١٢٣ .

[2] خزانة الأدب ، تأليف : عبد القادر بن عمر البغدادي . تحقيق : عبد السلام هارون ، جـ٣ ١٥٤ ، بتصرف يسير . ط- الرابعة ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م .

[3] من أسرار التعبير القرآني ، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب ، د/ محمد أبو موسى : ١٠١ ط - الثانية ، مكتبة وهبة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

ويأتي المشهد الثاني في القصة بعطف جملة : " فمرّت كَهَاة " على جملة : " قَدْ أثارَتْ مَخافَتي ..." للتوسط بين الكمالين ، فقد اتّفقت الجملتان في الخبريّة لفظا ومعنى . والعطف بـ " الفاء " يشعر بسرعة اتصال الحدث ، فقد أعقب المشهدَ الأول المشهدُ الثاني دون إمهال ، فالذعر الذي أصاب الإبل من مرور طرفة بينها شاهرا سيفه ساق هذه الناقة الضخمة العظيمة لتمر أمام طرفة فيعمل فيها سيفه. و قد حرص طرفة على تأكيد عظم وضخامة وجودة الناقة التي أعمل فيها سيفه و ذبحها ، فنكّر " كهاة " ليفيد التعظيم ، فالكهاة : هي الناقة الضخمة التي كادت تدخل في السن .[1] و وصفها بـ " ذَات خَيْف " ، أي : عظيمة الثدي ، فالخيف : جلد ضَرع الناقة إذا عظُم ثديُها.[2] و وصفها بـ " جُلالة "، أي : الناقة العظيمة الجسيمة . و بـ" عقيلة شيخ " ، أي: من خير ماله و أفضله . و ما ذكره طرفة للناقة من صفات هو من دواعي تأكيد الفخر بكرمه ، فهو لم يذبح ناقة عاديّة ، بل ناقة ضخمة عظيمة من خير إبل ابن عمومته (الشيخ) و أفضلها.

و قد حرص طرفة أن يبرز مشهد عقره هذه الناقة الكريمة النجيبة بحكاية موقف صاحب الناقة (الشيخ) وهو من أبناء عمومته بعد أن رماه طرفة بسخريته وشبّهه في هزاله و ضمره بالعصا : " شَيخٍ كالوَبيلِ " ، و وصفه بأنّه شديد الخصومة له : " يَلَنْدد " بسبب ذبح نوقه إكراما للضيفان . يقول[3] طرفة حكاية عن هذا الشيخ :

يَقولُ وَقَدْ تَرّ الوَظيفُ وسَاقُها أَلَستَ تَرى أن قد أَتَيتَ بِمُؤيِدِ ؟

---

[1] ينظر : لسان العرب " مادة : كها " جـ ١٥: ٢٧١ .

[2] ينظر : الاشتقاق لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون : ١١٦ . ط- الثالثة ، مكتبة الخانجي القاهرة .

[3] ديوان طرفة شرح الأعلم الشَّنْتَمَريّ :٥٥ ، ٥٦ .

وَقَـــالَ: أَلَا مَـــاذَا تَـــرَوْنَ لِشَـــارِبٍ شَـــدِيدٍ عَـــلَيْكُم بغْـــيُهُ مُتَعَـــمِّدِ ؟

فقَـــالَ: ذَرُوهُ إنَّـــما نَفْعُـــهَا لَـــهُ و َإلّا تكُفّـوا قاصـيَ البَـزْكِ يَـزْدَدِ

يُلاحظ أنّ طرفة لمّا نقل الحديث عنه إلى حكاية مقالة الشيخ فصل جملة : " يقول ... " ولم يعطفها على ما قبلها : " فمرّت كَهَاة ... " ، وهذا الفصل لكمال الانقطاع بلا إيهام ؛ فقد اتّفقت الجملتان في الخبريّة لفظا و معنى ، ولكن فُقد الجامع بينهما ؛ فقول الشيخ لطرفة لا علاقة له بمرور ناقته أمام طرفة عندما أثارها الخوف و الذعر الذي نشره مرور طرفة بسيفه بين الإبل . و هذا الفصل يوحي باستقلاليّة المشهد ، وأنّه صُلْب القصة التي هي كناية عن الكرم ، فهو يحكي موقف صاحب الناقة المعقورة حال وقوع العقر لناقته ؛ ليؤكّد عقره للناقة ويقرّره في نفس السامع و المُتَلقّي ؛ فقول هذا الشيخ متجدد تجدد العقر لنوقه ؛ ولذلك عبّر عنه بالفعل المضارع : " يقول " فالمضارع – هنا – دال على تجدد وحدوث هذا القول من الشيخ كلّما حدث وتكرر ما يقتضيه مقام الكرم من ذبح طرفة لإحدى نوقه . وقد يكون الفصل – هنا – لشبه كمال الاتّصال ؛ لأنّ طرفة قد وصف الشيخ صاحب الناقة في الجملة الأولى : " فمرّت ناقة ... يلندد " بأنّه شديد الخصومة " يلندد " ، وهذا يثير سؤالا : ماذا قال الشيخ عند عقرك ناقته ؟ فحكى طرفة قول الشيخ : " يقول ... . " واعترض بين جملة القول والمقول بالجملة الحاليّة : " وَقَدْ تَرّ الوَظيفُ وسَاقُها " ، فالجملة الحاليّة كناية عن عقر الناقة . ويُلاحظ أنّ هذه الجملة الحاليّة أكّدت بـ " قد " " وجاءت بالواو ، و هذه الواو تشير إلى أنّها توشك أن تكون خبرا مستقلا."[1] ولا غرْو في هذا ، فهي صُلب المشهد الرئيس في القصة ، وهي التي أثارت حفيظة الشيخ صاحب الناقة وأطلقت لسانه

[1] قراءة في الأدب القديم . د/ محمد أبو موسى : ٥١ .

ليعبر عن عميق أسفه ؛ ولذلك آثر طرفة تأكيدها بـ " قد " ، واقترانها بواو الحال المؤذنة باستقلالها.والتعبير بالفعل " ترَّ " دون " قطع " أو " بان " ؛ لأنّ " التَرّ " يعني القطع بضربة واحدة ، تقول :" تَرّ الشيءُ يَتِرُّ ويَتُرُّ تَرًّا وتُرُورًا : بان وانقطع بضربة ."[1]

فضربة طرفة كانت قاطعة حاسمة في عقر الناقة ، ممّا أثار الشيخ فسارع بالإنكار بقوله : " أَلَستَ تَرى أن قد أَتَيتَ بِمُؤيِدٍ ؟ "، فالاستفهام إنكاري ، أي: إنكار للنفي وإثبات للكلام ، و معناه : أنّك تعلم أن قد أتيت بمؤيد "، أي : بأمر عظيم ، فالمؤيد : " الأمر العظيم و الداهية ."[2] وهذا الاستفهام الإنكاري و إن أفاد الإثبات إلا أنّه يفيض بمعاني الحيرة واللوم والعتاب والتوبيخ . وعطفت جملة القول :" وَقَالَ: أَلَا مَاذَا تَرَوْنَ لِشَارِبٍ ... " على سابقتها : " يَقولُ ..." للتوسط بين الكمالين ، فقد رغب طرفة في استكمال حكاية رد فعل الشيخ على عقر ناقته تأكيدا لكرمه الحاتمي .فالشيخ المكلوم بفعل طرفة يستفتح استفهامه الثاني بـ " ألا " لتنبيه المخاطبين من أصحابه وعشيرته على ما ألمّ به من حزن وألم ، فـ " ألا " من المقاطع الصوتيّة الممتدة التي تتلاءم مع مقامات البوح و العتاب و الشكوى. ثم أعقب " ألا " الاستفتاحيّة باستفهام حقيقي يحمل في طيّاته الحزن و الشكوى : " مَاذَا تَرَوْنَ لِشَارِبٍ شَدِيدٍ عَلَيْكُم بغْيُهُ مُتَعَمِّدِ ؟ " ، أي : " قال الشيخ مستشيرا أصحابه : ما الذي ترون أن نفعل بطرفة شارب الخمر يبغي علينا بعقر كرائم أموالنا ؟ "[3]

وآثر طرفة الإسراع في إعلان يأس الشيخ صاحب الناقة المعقورة بعطف جملة القول : " فقَالَ: ذَرُوهُ إنَّما نَفْعُهَا لَهُ ... " على سابقتها : " قَالَ: أَلَا مَاذَا

---

[1] لسان العرب " مادة : ترر " جـ٤: ١٠٣

[2] لسان العرب " مادة : أيد " جـ٣ : ٩١ .

[3] خزانة الأدب ، جـ ٣ : ١٥٦ .

تَرَوْنَ لِشَارِبٍ ..." بفاء التعقيب التي طوت في جوفها إجابة أصحاب الشيخ عليه مؤذنة بسرعة إدراك الشيخ حقيقة الأمر ، وأنّه قد ألف فعل طرفة ، ولا فائدة من الشكوى ؛ ولذلك قد أفاض فعل الأمر : " ذَرُوهُ " الذي خاطب به الشيخ أصحابه في أمر طرفة شيئًا ليس باليسير من يأس الشيخ الذي علّله بقوله : " إنَّما نَفْعُهَا لَهُ " فقصر نفع الإبل التي يمتلكها على طرفة لا تتعداه إلى غيره . والقصر بـ " إنّما " يأتي " للأمر الذي لا يجهله المخاطب ولا ينكره ."[1] ممّا يجعل هذه الملكيّة والنفعيّة أمرا يعلمه الجميع ، فلا حاجة إذًا إلى لوم طرفة ، ولكن المهم هو كفّ الإبل البعيدة عن النفور و البعد أكثر إذا حلّ ضيف على طرفة ، فأعاد عادته وسارع بذبح إحدى النوق : " و َإلّا تكُفّوا قاصيَ البَرْكِ يَزْدَدِ ." و الفصل بين جملتي : " ذروه ، إنّما نفعها له " لشبه كمال الاتصال ، فقد أثار فعل الأمر في قوله : " ذروه " سؤالا عند أصحاب الشيخ وهو : لماذا نتركه ؟ فجاء الجواب : " إنّما نفعها له. " ويلاحظ أنّ طرفة حكى رد فعل الشيخ صاحب الناقة المعقورة متدرّجا من قوة الانفعال إلى الضعف ، ثم اليأس . وكانت الحكاية كلّها كناية عن صدق طرفة في عادة إكرام ضيفانه متى حلّوا عليه وأين حلّوا ، غير عابئ بتوبيخ هذا الشيخ و شكواه منه .

ثمّ يأتي المشهد الأخير الذي أنشئت من أجله القصة ليترجم عن كرم طرفة في صورة حيّة، يقول طرفة :

فَظَلّ الإماءُ يَمْتَلِلْنَ حُوَارَهَا ويُسْعَى علَينا بالسَّديفِ الْمُسرْهَدِ

[1] دلالات التراكيب . د/ محمد أبو موسى : ١٦١ .

المعنى : فظل الإماء يشتوين ولد الناقة الذي خرج من بطنها تحت الجمر والرماد الحار ، ويسعى الخدم علينا بقطع سنام الناقة الحسن الغذاء السمين.[١]

قد عطف هذا المشهد الأخير في القصة على سابقه ، وهو حكاية رد فعل الشيخ صاحب الناقة المعقورة بـ" الفاء " في قوله : " فظَلّ " فالفاء – هنا – " راجعة إلى تلك العائلة من الفاءات التي تربط أحداث القصة ."[٢] و هي – هنا – تأذن بسرعة اتّصال هذا المشهد الأخير بسابقه ، وهو حكاية رد فعل الشيخ على عقر ناقته ، وبين المشهدين مسافة زمنيّة طوت فيها " الفاء " حدث تهيئة الناقة للشواء ، وكأنّ طرفة أراد أن يسرع في استحضار الصورة الحيّة لكرمه التي بدت واضحة في التعبير بالفعل المضارع : " يَمْتَلِلْنَ ، يُسْعَى " فالفعل المضارع جعل الصورة ماثلة أمام أعيننا ، وكأنّنا نشاهد الإماء وهنّ يشوين ولد الناقة في المَلَّة وهي الرماد الحار و الجمر ؛ و نشاهد – أيضا – الخدم وهم يسعون على الشاعر و ضيفانه بقطع السنام السمين المغذي. وهذه الصورة الحية لكرم طرفة ما كانت لتحدث لولا التعبير بالفعل المضارع . و التعبير بالمضارع– هنا – دون الماضي الذي يعني انقطاع الحدث ، حقق مراد الشاعر في بقاء هذا الحدث و تجدده ، لأنّ الفعل المضارع دال على التجدد والحدوث ، والفعل " ظل " دال على دوام هذا التجدد والحدوث .[٣] و بناء الفعل " يُسْعَى" للمجهول يسلّط ضوء الاهتمام على الحدث ، وهو سعي الخدم بأشهى الطعام على الضيفان .

---

[١] ينظر : خزانة الأدب ، جـ٣ : ١٥٦ . والديوان : ٥٦ .

[٢] الشعر الجاهلي . د/ محمد أبو موسى : ٦٧ .

[٣] ينظر: قراءة في الأدب القديم . د/ محمد أبو موسى : ٧١ .

خامساً : الفخر بالندماء[1] .

وفي سياق فخره بكرمه جاء فخره بندمائه في بيت يقول فيه :

نَـــدَاماىَ بِـــيضٌ كـــالنُّجُومِ وقَيْنَـــةٌ تَـرُوحُ علينـا بَـيْنَ بُـرْدٍ ومُجْسَـدِ[2]

وفخر طرفة بندمائه جاء عقب تيهه واعتداده بطيب أرومته وكرم بيته الذي يصمد إليه المحتاجون في قوله :

وإنْ يَلْتَـــقِ الْحَـــيُّ الْجَميـــعُ تُلاقِنِـــي إلـــى ذِرْوَةِ البَيـــتِ الكـــريم الْمُصَـــمَّدِ

فتناغم الفخران فخره بكرم البيت الذي ينتسب إليه ، و فخره بمجالسة ندمائه الذين هم من علية القوم ومشاهيرهم . و دلّنا طرفة على شهرة ندمائه الذين يجالسهم ، وأنّهم من علية القوم ، باستخدام الصورة الحسيّة ، حيث شبّه ندمأاءه بالنجوم في الشهرة ، والرفعة، وعلوّ المكانة ، و الاشراق في قوله : " نَدَاماىَ بِيضٌ كالنُّجُومِ. " فالتشبيه نقل هذه الصفات المعنوية لندماء طرفة ، و التي هي محل فخره بهم إلى العالم الحسي ؛ ليكون ذلك أبين وأشدّ تأثيرا . و إضافة " الندامى " إلى ضمير النفس " ياء " المتكلم في قوله : " نداماي " يشعر بامتلاء الذات بالاعتزاز والفخر، فالشاعر يجالس الشرفاء من علية القوم .

وذكر المسند (خبر المبتدأ):"بيض"في قوله:"نَدَاماىَ بِيضٌ " يشعر برفاهية الحياة ونضرتها التي تبدو في وجوه ندمائه،فهم منعمون، وأثر هذه النعمة تبدو في وجوههم؛ و لذلك قد يكون مراد الشاعر في قوله : " نَدَاماىَ بِيضٌ كالنُّجُومِ" تشبيه

---

(1) الندماء : جمع نديم ، والنديم : الجليس على الشراب ، يقال : نادَمَ الرجل مُنادَمةً ونِداماً جالَسه على الشراب . وكذلك النَّدْمانُ والجمع نَدامى ونِدامٌ ولا يجمع بالواو والنون .

(2) القَيْنةُ : الأَمة المُغنّية ، و قيل : القَيْنة الأَمة مُغَنّية كانت أَو غير مغنية.

وجوه ندمائه البيضاء بالنجوم في الاشراق و التلألأ دون غيرهما من الصفات الأخرى مبالغة منه في هاتين الصفتين المشعرتين بالرفاهية و التنعم وهذا لا يكون إلا لأحرار الناس ومشاهيرهم الذين ينادمهم الشاعر .

سادساً : الفخر بمعاقرة الخمر[1]والاشتغال باللذّات .

وفي سياق فخره بندمائه جاء فخره بمعاقرة الخمر والاشتغال باللذات،يقول[2]:

وَ مَـا زَالَ تَشْـرَابي الخُمُـورَ وَلَـذَّتي و َبَيْعي وإنفاقي طَريفي وَمُتْلَدِي[3]

إلـى أَنْ تَحَـامَتني العَشِـيرَةُ كُلُّـهَا وَ أُفْـرِدْتُ إفْـرَادَ البَعِـيرِ المُعَبَّـدِ [4]

أَلاَ أَيُّهـذَا الزَّاجِـري أَحْضُـرُ الـوَغَى وَأَنْ أشهد اللَّذَّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي؟

فـإنْ كُنْـتَ لاَ تَسْطِـيْعُ دَفْـعَ مَنِيَّتِـي فَـذَرْنِي أُبَادِرُهَـا بِمَـا مَلَـكَتْ يَـدِي

فَلَـوْلاَ ثَـلاثٌ هُـنَّ مِـنْ حَاجَـةِ الفَتَـى وَجَـدِّكَ لَـمْ أَحْفِـلْ مَتَـى قَـامَ عُـوَّدِي

---

(١) المُعاقَرةُ : الإدمان، والمُعاقَرة إدْمانُ شرب الخمر، ومُعاقَرةُ الخمر إدْمانُ شربها ، يقال:عاقَرَ الشيءَ مُعاقرةً وعِقاراً لَزِمَه . و العُقَارُ الخمر ، سميت بذلك ؛ لأَنها عاقَرت العقل وعاقَرت الدَّنّ ، أَي : لَزِمَتْه .
ينظر : لسان العرب " مادة : عقر " جـ ٤ : ٦٨٧ .

(٢) ديوان طرفة : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ .

(٣) الطَّرِيفُ و الطارِفُ من المال : المُسْتَحْدثُ وهو خِلافُ التَّالِد والتَّلِيدِ .المُتْلَدُ والتالد : المال القديم الأَصلِيُ الذي وُلد عندك وهو نقيض الطارف. ينظر : لسان العرب " مادة : طرف " جـ ٩: ٢٥٦. و" مادة : تلد " جـ ٣ : ١٢١ .

(٤) المُعَبَّدُ : الأَجْرَبُ الذي قد تساقط وَبَرهُ فأُفْرِدَ عن الإبل لِيُهْنَأَ ، وبعيرٌ مُعَبَّدٌ : مهنوء بالقَطِران ، ويقال : هو الذي عَبَّدَه الجَرَبُ أَي ذَلَّلَهُ . و العَبَدُ : الجَرَبُ ،وقيل الجربُ الذي لا ينفعه دواء وقد عَبِدَ عَبَداً ، وبعير مُعَبَّد : أَصابه ذلك الجربُ . ينظر : لسان العرب " مادة : عبد " جـ ٣ : ٣٣٦.

فَمِنْهُـــنَّ سَبْـــقِي العَـــاذِلاتِ بِشَـــرْبَةٍ كُمَيْتٍ مَتَى ما تُعْلَ بِالمَاءِ تُزْبِدِ [1]

وتَقْصِـيرُ يَـوْمِ الـدَّجْنِ والـدَّجْنُ مُعْجِـبٌ بِبَهْـكَنَةٍ تَحْـتَ الطِّـرافِ المُمَـدَّدِ[2]

فَـذَرْنِي أُرَوِّي هَـامَتِي فِـي حَياتِهـا مَخافَـةَ شُـربٍ فِـي الحَيـاةِ مُصَـرَّدِ[3]

كَرِيْـمٌ يُـرَوِّي نَفْسَـهُ فِـي حَيَاتِـهِ سَتَعْلَمُ إِنْ مُتْنَا صَدًى أَيُّنَا الصَّدِي

قد افتتح الشاعر فخره بمعاقرة الخمر ، والاشتغال باللذّات بالفعل " ما زال " وهو من أخوات " كان " يدل على ملازمة الخبر للاسم.[4] وهذا ممّا يؤكّد استمراريّة تعاطي الشاعر هذه الخمور واللذّات ، و إنفاقه في سبيلها كل ما يملك . و حذف المسند (خبر الفعل " ما زال ") في قوله: " وَ مَا زَالَ تَشرَابي الخُمُورَ ، وَلَذَّتي ، و

---

(1) الكُمَيْتُ : لونٌ ليس بأَشْقَر ولا أَدْهَم ، و كذلك الكُمَيْتُ من أَسماء الخمر فيها حُمرة وسواد . الزَّبَـدُ : زَبَـد المـاءِ والبعيـر و الفضـةِ وغيرهـا . ينظـر : لسـان العـرب " مـادة : كمـت" جـ ٢ : ٩٢. و" مادة : زبد " جـ ٣ : ٢٣٨ .

(2) الدَّجْنُ : ظلُّ الغيم في اليوم المَطير ، وقيل : الدَّجْن : إلباسُ الغَيم الأَرضَ ، وقيل : هو إِلْباسُه أَقطارَ السماء ، والجمع أَدْجان ودُجون ودِجان .امرأَة بِهْكنةٌ : غضَّة ، وهي ذات شَبابٍ بَهْكَنٍ ، أَي : غَضٍّ . و قيل : البَهْكَنةُ : الجاريةُ الخفيفةُ الروح الطيِّبة الرائحةِ المليحةُ الحلوة .الطِّرافُ : بَيْت من أَدَم ليس له كِفاء ، و هو من بيوت الأَعراب .

ينظر : لسان العرب " مادة : دجن" جـ ١٣ : ١٧٧. و" مادة : بهكن " جـ ١٣ : ٧١. و" مادة : طرف" جـ ٩ : ٢٦٢.

(3) شراب مُصَرَّدٌ : مُقَلَّل ، و كذلك الذي يُسقَى قَلِيلاً أَو يُعْطى قليلاً . وصَرَّدَ العطاء : قَلَّله . ينظر : لسان العرب " مادة : صرد " جـ ٣ : ٣٠٦ .

(1) ينظر : التحفة السنيّة بشرح المقدّمة الآجروميّة ، تأليف : محمد محيي الدين عبد الحميد ٧٦ . ط – مكتب السنة ١٩٨٩م – ١٤٠٩ هـ .

بَيْعي ، وإنفاقي طَريفي وَمُتْلَدِي " دال على قناعة الشاعر بفعله ، و أنّه نابع من ذاته يقينا لا يشوبه شك أو تردد . والتقدير : ما زال تشرابي الخمور ، و ... كائنًا أو موجودًا . و يحمل ضمير النفس " ياء " المتكلم في قوله : " تشرابي ، لذّتي ، بيعي ، إنفاقي ، طريفي ، متلدي " مشاعر التيه والعجب بالذات المفتخرة بشرب الخمر و الانغماس في اللذات بأنواعها. وصيغة الجمع " الخمور " تشعر بأنّ خمر طرفة ليست نوعا واحدا ، بل هي أنواع مختلفة ، وكأنّ طرفة لم يترك نوعًا من أنواع الخمور إلا شربها . وهذا ما يستدعيه مقام الفخر . وعطف اللذة المضافة إلى " ياء " المتكلم في قوله : " و لذّتي " على " الخمور " من عطف العام على الخاص ؛ لأنّ شرب الخمر لذّة من اللذّات. وهذا العطف يشعر بأولويّة الخاص وهو الخمر، وأنّه مقدّم عند طرفة ، وأنّه لذّته الكبرى ؛ ولذلك عبّر عن شربه بصيغة:" تَفْعَال " في قوله : " وَ مَا زَالَ تَشرَابِي الخُمُورَ " مبالغة في كثرة الشرب والارتواء منه ، فـ" تشراب " : تفعال من الشرب إلا أنّ تشرابا يكون للكثير ، و الشرب يقع للقليل والكثير ، فصيغة " التفعال " يُجاء بها لتكثير المصدر.[1] و قد أبرز الطباق بين " طريفي و متلدي " اتخاذ طرفة ماله وسيلة إلى تحقيق غايته المنشودة ، وهي إدراك اللذات والمتع ، فلا عزّة لمال لديه سواء كان قديما ورثه أو حديثا كسبه ، فماله كلّه سواء في الإنفاق على لذّاته ومتعه ، وهذا ما أكّدته " إلى " التي لانتهاء الغاية في قوله :

إلى أَنْ تَحَامَتني العَشِيرَةُ كُلُّهَا وَ أُفْرِدْتُ إفْرَادَ البَعِيرِ المُعَبَّدِ

---

[1] ينظر : المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده . تحقيق : د/ عبد الحميد هنداوي ، جـ ٤ : ٢٧٧ . ط- الأولى ، دار الكتب العلميّة ، بيروت – لبنان ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

فـ" إلى " التي لانتهاء الغاية تؤذن بأنّ طرفة بلغ في إنفاق وتبذير ما كسبه من مال ، وما ورثه على لذّاته ومتعه منتهاه ؛ ممّا أثار عليه حفيظة عشيرته ، فقرروا اجتنابه واعتزاله.

وتأكيد العشيرة بـ " كلها " يفيد الإجماع على اعتزال طرفة ، و أنّه قرار جماعيّ لم يتخلّف عنه فرد من أفراد العشيرة. و هذا – كما ذهب أحد الباحثين– قد يشعر بـ" تضخم ذات الشاعر و قدرته على الاستغناء عن الحيز الجمعي في سبيل الدفاع عن لذّات النفس ومتعها"[1] و قد جاء المفعول المطلق في قوله : " إفْرَادَ البَعِيرِ المُعَبَّدِ " مبينا نوع عزل العشيرة له في إطار التشبيه ، فقد عزلوه عنهم وأبعدوه كما يعزل ويبعد البعير الأجرب ؛ لئلا يُعدِي صحاح الإبل . و قد أوحى وصف البعير بـ" المعبّد " ، أي : المذلّل بالقَطِران ، بدلالات الإحساس بالانكسار ، و هذا ما أكّده بناء الفعل : " أفردت " للمجهول ، فبناء الفعل للمجهول ، وإسناده إلى ضمير الشاعر البارز ، أوحى بشدة الشعور بالوحشة و الغربة ، حيث أصبح الشاعر فردا مبتور الصلة عن عشيرته يعيش وحيدا ، و هذا ممّا يؤكد انكسار ذات الشاعر أمام هذه العزلة الاجتماعية . و أرى هذه النغمة الانكسارية التي سيطرت على الشاعر تتباين وتتناقض مع نغمة الفخر بلذّاته و انغماسه فيها ؛ لأنّ نغمة الفخر تجري في مجرى العزة والشموخ لا الذلّة والانكسار . و قد استأنف طرفة بالرد على لوم اللائم له ؛ ليخرج من دائرة الانكسار ، ويخلو إلى ذاته صافي الذهن والقلب ، يقول :

أَلاَ أَيُّهــذَا الزَّاجِــري أَحْضُــرُ الــوَغَى وَأَنْ أشهد اللَّذَّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي ؟

---

[1] أزمة الذات الشعريّة معلّقات " امرئ القيس و طرفة بن العبد وعنترة " نموذجا . د/ محمد سعيد حسين ، ود/ حسن إسماعيل : ٣٦٣. مجلة جامعة تكريت للعلوم ، المجلد ١٩، العدد ٧، تموز ٢٠١٢م

بدأ رد الشاعر على لائمه على حضور الحرب ، والإنفاق على اللذّات بـ" ألا " الاستفتاحيّة ؛ ليستقبل اللائم الرد و هو في حال يقظة وانتباه ؛ رغبة من الشاعر في حسم لوم هذا اللائم حتّى يتفرّغ ذهنه وقلبه لمتعه ولذّاته . وفي وصف المنادى المبهم الذي هو " أيّ " في قوله : " أَيُّهذَا الزَّاجِري " باسم الإشارة " ذا " إيذان بقرب اللائم ، أي : الزاجر من الشاعر ، فهو من أبناء عشيرته وأهل قبيلته الذين يؤثر لومهم في نفس الشاعر ، ويدخله في صراع نفسي يكدر صفو حياته ؛ و هذا ممّا جعل الشاعر يبدأ بـ " ألا " الاستفتاحية ، ويحذف حرف النداء ، و يلصق المنادى " أيّ " بـ " ها " التنبيه ، و يجعل صفتها اسم الإشارة ، و يتبع اسم الإشارة بعطف البيان أو البدل " الزاجر " رغبة منه في حسم هذا الصراع مع لائمه ليعود إليه الذهن والقلب صافيين بلا كدر. و قد يكون وصف المنادى " أيّ " باسم الإشارة " ذا " مشعرا بتحقير المشار إليه وعدم المبالاة بلومه ؛ لأنّه يلوم الشاعر على شيء حبيب إلى نفسه ولصيق بها ، و يجد فيه تميّزه واختلافه. ويؤكد طرفة رغبته في حسم الصراع مع لائمه بمجيئه بأسلوب الاستفهام في قوله : " هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي ؟ " فالاستفهام – هنا – بمعنى النفي ،أي : ما أنت مخلدي ، وإذا كان الأمر كذلك ولا تستطيع أيّها اللائم تخليدي فلِمَ اللوم ؟وفي هذا الاستفهام تعريض بعجز اللائم وسخرية من لومه . وقد أكّد الشاعر مضمون هذا الاستفهام بأسلوب الشرط في قوله :

فَإِنْ كُنْتَ لاَ تَسْطِيْعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي فَذَرْنِي أُبَادِرُهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي

عطفت جملة الشرط : " فَإِنْ كُنْتَ لاَ تَسْطِيْعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي " على سابقتها الاستفهامية : " هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي ؟ " ؛ و ذلك لما بين الجملتين من التوسط بين الكمالين : كمال الانقطاع وكمال الاتصال .فقد اتفقت الجملتان في الخبرية من حيث المعنى واختلفتا من حيث اللفظ ، فجملة الاستفهام إنشائيه لفظا خبرية معنى

، و جملة الشرط خبرية لفظا ومعنى. وعطف جملة الشرط على سابقتها الاستفهامية بـ " الفاء " مؤذن بسرعة تأكيد الشاعرعلى عدم قدرة لائمه على دفع المنيّة عنه وتخليده ؛ رغبة منه في التفرغ التام للذّاته وشهواته فهي حياته والمعبرة عن ذاته . ويلاحظ أنّ " إن " التي هي أداة الشرط في قوله : " فإنْ كُنْتَ لاَ تَسْطِيْعُ ... " جاءت – هنا – في مقام القول المقطوع به ، وهي إنّما يؤتى بها في مقام الشك و الندرة ،[1] فالمقام – هنا – يستدعي " إذا " مكان " إن " ؛ لأنّه ليس في استطاعة أحد دفع المنية عن أحد ، و إنّما أراد طرفة أنّ هذا اللوم لحضوره الحربَ ، وإنفاقه على اللذّات ينبغي ألا يكون إلاّ على سبيل الندرة . و قد تصدر الجواب بفعل الأمر " ذر " في قوله : " فَذَرْنِي أُبَادِرُهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي " ليشعر بتململ الشاعر ورغبته في التخلص السريع من اللائم و لومه . و" ما " في قوله : " بِمَا مَلَكَتْ يَدِي " هي " ما " الموصولة ، وهي مبهمة ، وهذا الإبهام حقق مراد الشاعر في وضع المتلقي والقارئ من خلال جملة الصلة : " ملكت يدي " على حقيقة ذهاب ماله ، وأنّه ذهب في الإنفاق على متعه و لذّاته وعلى رأسها الخمر. فجملة الصلة أشعرت بانبساط النفس وسرورها بهذا الإنفاق ، فهو إنفاق على لذّات بنى عليها الشاعر تميزه واختلافه عن بقيّة أهله وعشيرته . فهذه اللذّات هي محل فخره ، ورضا نفسه ، وسر الإبقاء على حياته ، وهذا ما أكّده بأسلوب شرط آخر في قوله :

فَلَوْلاَ ثَلاثٌ هُنَّ مِنْ حَاجَةِ الفَتَى وَ جَدِّكَ لَمْ أَحْفِلْ مَتَى قَامَ عُوَّدِي

فأسلوب الشرط بـ " لولا " – هنا – يبرز الترابط القويّ بين طرفة و لذّاته ، فهو ترابط يصل به إلى الإبقاء على حياته والحرص عليها من أجلها دون ما

[1] ينظر : قراءة في الأدب القديم : ٦٦ .

عداها . و جاء القسم : " وَ جَدِّكَ " معترضا بين الشرط و جوابه ليؤكد مضمون جملة الشرط وهو أنّ اهتمام الشاعر بحياته كان حرصا على لذّاته الثلاثة وهي: الخمر، والفروسية ، والنساء .

و قد أعاد الشاعر الحديث عن الخمر ، فهي أولى اللذّات وأعظمها ، يقول :

فَمِنْهُنَّ سَبْقِي العَاذِلاتِ بِشَرْبَةٍ كُمَيْتٍ مَتَى مَا تُعْلَ بِالمَاءِ تُزْبِدِ

المعنى : إنّه يغدو على شرب الخمر قبل لوم العاذلات ؛ ليقطع عذلهن ، وذلك أنّ الرجل كان يمسي سكران ، وقد أنفق من ماله ، ثم يصبح وقد صحا من سكره فتعذله العواذل.[١]

و في قوله : " سَبْقِي العَاذِلاتِ بِشَرْبَةٍ " كناية عن حرصه على الحفاظ على نشوة لذّته ، وعدم تكديرها بلوم العواذل له ؛ فهو يبادر بشرب الخمر قبل انتباه العواذل كي تخلص له اللذّة كاملة لا يشوبها ما يعكر صفوها . وفي تنكير " شربة " إشارة إلى أنّ خمره نوع نادر من الخمور وليست خمرا يشربها عوام الناس ، وإنّما هي خمر الخواص من أمثال طرفة ؛ ولذلك أعقبها بصفات كنى بها عن جودتها ، وأنّها خمر عتيقة ، فقد وصفها بأنّها : " كميت " ، أي : حمراء ، و بأنّها : " مَتَى مَا تُعْلَ بِالمَاءِ تُزْبِدِ " ، أي : إذا صب الماء عليها علاها زبد وهو الحباب.[٢]

و يواصل طرفة حديثه مفتخرا عن لذّة أخرى من لذّاته الثلاثة وهي لذّة التمتع واللهو بالنساء الجميلات ، يقول :

وتَقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ والدَّجْنُ مُعْجِبٌ بِبَهْكَنَةٍ تَحْتَ الطِّرافِ المُمَدَّدِ

---

[١] ينظر: الديوان : ٤٦ .

[١] ينظر : الديوان ٤٦ .

تأمّل الجملة الحاليّة :" والدَّجْنُ مُعْجِبٌ " تشعرك باستقلاليّة وتميز هذا اليوم عن بقية الأيّام، فهو يوم ذو غيم يبعث في النفس مشاعر وأحاسيس السعادة، ويدفع نحو اللهو والسرور ؛ ولذلك اعترضت بين الجار والمجرور موضع اللذّة والمتعة :"ببهكنة " وبين متعلّقه المصدر : " تقصير " إشعارا بممارستها وهو في ذروة اللذّة والنشوة ؛ ممّا أنساه الزمن وأفقده الإحساس به. ولمّا كان هذا الشعور متكرّرا كلّما عاد هذا اليوم ، ومارس فيه الشاعر هذه اللذّة تصدّر البيت المصدر :" تقصير" ليؤذن بأنّ تمتع الشاعر في هذا اليوم ، وعدم شعوره بمرور الزمن صار عادة من عاداته . وفي هذا البيت لفظة تأخذك نحوها ، وتشدّك إليها، وتسمّر ناظريك فيها ؛ لتفحصها بأناة ورويّة إنّها لفظة " بهكنة " متعة الشاعر وموضع فخره ، فقد استغنى عن الموصوف بهذه الصفة ، والتقدير : بامرأة بهكنة ؛ إشارة إلى أنّها امرأة فريدة وغريبة في الحسن والجمال تفرد وغرابة الصفة ذاتها " بهكنة "، فالمرأة البهكنة : هي ذات الشباب الغض ، الطيّبة الرائحة ، الحلوة .[1]

وكرّر الشاعر الحديث عن لذّته الأولى وهي شرب الخمر في قوله :

فَـذَرْني أُروّي هَـامَتِي فـي حَياتِهـا مَخَـافَةَ شُـربٍ فـي الحَيـاةِ مُصَـرَّدِ

كَرِيْـمٌ يُـرَوِّي نَفْسَـهُ فِـي حَيَاتِـهِ سَتَعْلَمُ إِنْ مُتْنَا صَدًى أَيُّنَا الصَّدِي

و في عودة الشاعر للحديث عن لذّة شرب الخمر عقب حديثه عن لذّة اللهو بالنساء تأكيد على نهم الشاعر ورغبته في إشباع نفسه من هذه اللذّة التي تمثّل له المتعة الأولى في حياته. و في تصدر فعل الأمر : " ذر " في قوله : " فذرني " تذكير بلوم اللائم له، والرغبة في التخلص من لومه ، وكأنّ اللوم خص بهذه اللذّة دون غيرها لإسراف الشاعر في الإنفاق عليها. وتضعيف الفعل " أروّي " أبرز إفراط

---

[1] ينظر: لسان العرب " مادة : بهكن " ، جـ ٣ : ٧١ .

الشاعر وتهالكه في شرب الخمر . و قد جاء المفعول لأجله " مخافة " في قوله : " مَخَافَةَ شُربٍ في الحَياةِ مُصَرَّدِ " تعليلا لهذا الإفراط والتهالك ، فهو يخشى انقطاع الشراب عنه بعد الموت ؛ ولذلك جاء بقوله : " كَرِيْمٌ يُرَوِّي نَفْسَهُ فِي حَيَاتِهِ ... " في البيت التالي مؤكّدا هذا المضمون مستأنفا به مقطعا جديدا من مقاطع المعنى ، حيث فصلت الجملة محذوفة المسند إليه : " كريم ... " ، أي : هو كريم ، عن سابقتها : " فذرني " ؛ وذلك لكمال الانقطاع ، فالأولى إنشائيّة لفظا ومعنى ، والثانية خبريّة لفظا ومعنى وفي هذا الفصل إشعار باستقلاليّة الجملة الثانية ، و أنّها انتقال جديد بالمشاعر النفسية من مخاطبة اللائم من خلال الذات المتضخمة التي يبرزها ضمير النفس وهو " ياء " المتكلم في قوله :" فذرني أروي هامتي ..." إلى التجريد في قوله : " كريم يروي نفسه..." ، و هذا إذا كان المسند إليه المحذوف ضمير الغيبة : " هو ". " و التجريد طريقة فذة في بناء المعاني ، وكأنّ الشاعر ينتزع من نفسه نفسا ثانية يحاورها و يحادثها حتى تكتمل وتسخو صور الحوار والمناقلة ، وحتى تنكسر الرتابة ، أعني ما عليه مألوف الكلام ."[1] فقد جعل طرفة من نفسه شخصا آخر موصوفا بالكرم الذي يصل به إلى حد الإسراف في الإنفاق على لذّته الأولى وهي الخمر ، وموصوفا – أيضا – بإفراطه الشديد وتهالكه في شرب الخمر إلى درجة الارتواء : " أروّي " ؛ إشارة إلى كمال هاتين الصفتين فيه . أمّا إذا كان المسند إليه المحذوف ضمير المتكلم " أنا " في قوله : " كريم يروي نفسه..." فسيكون الحذف –هنا– مؤكدا لاستقلالية الجملة الثانية الذي أفاده الفصل لكمال الانقطاع، ومؤذنا باستئناف مقطع جديد من مقاطع المعنى قد بنى هذا المقطع على إسقاط المسند إليه في قوله : " كريم يروي نفسه ..." ، أي:

[1] قراءة في الأدب القديم : ٣٧ .

أنا كريم . و كأنّ الحذف – هنا – تمييز بين لونين من ألوان المعنى.[١] اللون الأول : هو مخاطبة اللائم وأمره بترك اللوم في قوله :" فذرني" . واللون الثاني:هو حديث الشاعرعن نفسه ، و أنّه كريم ينفق ببذخ على شرابه حتي يرتوي ، و كأنّه يعلن انتصاره على لائميه ، وهو انتصار في الحقيقة للذّاته وشهواته . ثم يعود إلى خطاب اللائم خطاب الواثق من نفسه ، وأنّه قد وصل بها إلى حالة الارتواء التي نشدها منذ بدء حديثه مع لائمه إلى منتاه في قوله : " سَتَعْلَمُ إنْ مُتْنَا صَدًى أَيُّنَـا الصَّدِي " فقد محّض الفعل المضارع " ستعلم " بالسين للاستقبال ؛ إشعارا بثقته بأنّ أثر ارتوائه في الحياة سيبقى بعد موته .

سابعاً : الفخر بأفعال وصفات حميدة متعددة .

وفي سياق فخره بكرمه جاء فخره بأفعاله وصفاته المتعددة ، يقول[٢]:

فَـإن مُـتُّ فَـانعيني بِمـا أَنـا أَهـلُهُ وَشُـقّي عَـلَيَّ الجَيـبَ يـا اِبنَـةَ مَعبَـدِ

وَلا تجعَـليني كامْـرِئٍ لَـيْسَ هَمّـهُ كَهَمّـي ولا يُغنـي غَنـائي و مَشـهدي

بَطِـيءٍ عَـنِ الْجُلّـي سَـريعٍ إلـى الخنـا ذَليلٍ بِأَجْمَاعِ الرّجالِ مُلَهَّدِ[٣]

فَلَـوْ كُنْـتُ وَغْـلًا فـي الرّجَـال لَضَـرّني عداوَةُ ذي الأصحابِ و الْمُتَوَحِّدِ[٤]

---

[٢] ينظر: خصائص التركيب : ٢٠٠ .

[٣] ينظر: ديوان طرفة : ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ .

[١] الجُلّى : الأمر العظيم ، وجمعها : جُلَل . الخنَا : الفُحْش ، والخَنَا من الكلام : أَفْحَشُه المُلَهَّد : المُدَفَّع المستضعف الذليل ، يقال : لَهَدْتُ الرجلَ أَلْهَدُه لَهْدًا : دفعته . ينظر: لسان العرب " مادة : جلل " ، جـ ١١ : ١٤١ . و" مادة : خنا " ، جـ ١٤ : ٣٠٢ . و" مادة : لهد " ، جـ ٣ : ٤٨٣ .

[٢] الوَغْل : النَّذْل الضعيف الساقط المُقَصِّر في الأشياء ، والجمع : أوغال . ينظر: لسان العرب " مادة : وغل " ، جـ ١١ : ٨٧٥ .

وَلكِــنْ نَفَــى عَنِّــي الرجــال جَرَاءَتِــي وصَبْرِي وإقْدَامي عليْهِمْ ومَحْتدي[1]

لَعَمْــرُكَ مــا أمْــرِي عــلــيّ بِغُمَّــةٍ نَهَارِي ولا لَيلي عَليّ بسرْمَدِ [2]

وَيَــوْمَ حَبَسْــتُ الــنَّفْسَ عنــدَ عرَاكِهــا حفَــاظًا عَــلى عوْرَاتِــهِ والتّــهَدّدِ [3]

عَلَى مَوْطنٍ يخشَى الفَتَى عندَهُ الرّدَى متــى تعْتــرِكُ فيــهِ الفــرَائصُ تُــرْعَدِ [4]

أبرز خطاب الشاعر لابنة أخيه في هذه الأبيات الاعتداد بالذّات وتضخّمها ، وقد بد هذا جليًّا

في إبراز ضمير النفس في قوله : " فَإن مُتُّ فَانعيني بِما أَنا أَهلُهُ ، وَشُقّي عَلَيَّ ... " واشتراط الموت – هنا – على حذف الظرف ، أي : إن مت قبلك.[5] و في هذا الحذف و استخدام الشاعر " إنْ " الشرطية التي تستعمل غالبا إذا كان ما دلّت عليه جملة الشرط أمرا مشكوكا في وقوعه مستقبلا ، أو هو نادر الوقوع ، إشعار بالرغبة في الحياة ، فهو يشك في موته قبل ابنة أخيه ولم يصل إلى حد الترجيح أو اليقين الذي يستخدم معه " إذا " دون " إن " . وهذا يتلاءم مع مقام

---

[3] المَحْتِد : الأصل والطبع . ينظر: لسان العرب " مادة : حتد " ، جـ ٣ : ١٧٢.

[2] الغُمَّة : الأمر المبهم ، يقال : أمر غُمّة : مُبْهَم مُلتبِس . السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار. ينظر: لسان العرب " مادة : غمم " ، جـ ١٢ : ٥١٦ . و" مادة : سرمد " جـ ٣ : ٢٦١ .

[3] العراك : الازدحام . ينظر: لسان العرب " مادة : عرك " ، جـ ١٠ : ٥٦٢ .

[4] الفرائص : جمع فريصة ، والفريصة هي اللحم بين الكتف والصدر ، أو هي اللحمة التي بين الجنب والكتف . ينظر: لسان العرب " مادة : فرص" ، جـ ٧ : ٧١ .

[1] ينظر: الخصائص لابن جني . تحقيق : عبد الحكيم بن محمد ، جـ ٢ : ٢٥٣ . ط- المكتبة التوفيقية .

الفخر ، فالنفس المفتخرة نفس شابة ، توّاقة للحياة ، متشبعة بالأمل . وقد أزالت جملة الصلة : " أنا أهله " إبهام " ما " الموصوليّة في قوله: " بِما أَنا أَهلُهُ "، و أبانت عن غرض الشاعر، و هو الفخر بسيرته المتمثّلة في أفعاله وصفاته " ومن الحكمة ودقيق الصنعة أن يجعل الشاعر غرضه من الجملة في أنف كلامه، كما يقول الشيخ عبد القاهر ."[1] وتعريف المسند إليه في جملة الصلة بضمير النفس " أنا " أشعر بالتفرّد ، والاعتداد بالنفس ، والإعجاب بها . فهو يستحق من وجهة نظره أن يُثنَى عليه بعد موته بعظيم الثناء الذي يليق بالعظماء ، وهو واحد منهم ؛ ولذلك كنى بقوله :" وَشُقّي عَلَيَّ الجَيبَ "عن الحزن الشديد لفقده ، فالكناية أشعرت بفقد رجل عظيم يستحق الحزن العظيم لفقده . وجاء القصر بتقديم الجار والمجرور " عليّ " على المفعول " الجيب " مؤكدا ما أشعرت به الكناية ، فقد قصر شق الجيب على فقد الشاعر لا يتجاوزه إلى أحد سواه ، وكأنّ غيره من الرجال لا يُعتد بفقدهم ، ولا يستحقون الحزن عليهم ، وفي هذا من الاعتداد بالنفس ، وتضخم الذات ما فيه . وإذا كان خطابه لابنة أخيه في حضورها، فالنداء بـ " يا " التي وضعت لنداء البعيد في قوله : " يا اِبنَةَ مَعبَدِ " مؤذنة بأهميّة ما ينادى من أجله ، فلتستعد بقلبها وعقلها لتلقيه . وهذا ينتظم في سلك المشاعر و الأحاسيس التي أفاض بها الشطر الأول من البيت من الإحساس بالتفوّق والتفرد والعظمة ، فقد هيّأ الشاعر ابنة أخيه للشروع في بيان صفاته وأفعاله الحميدة ، فقال :

وَلا تجعَــليني كامْــرِئٍ لــيْسَ هَمّــهُ كَهَمّي ولا يُغني غَنائي و مَشهدي

بَطِيءٍ عَنِ الْجُلّي سَريعٍ إلى الخنا ذَليــلٍ بِأَجْمَــاعِ الرّجــالِ مُلَهَّــدِ

---

[2] قراءة في الأدب القديم : ٧٩ .

عطفت جملة : " وَلا تجعَليني " على سابقتها : " يا ابنة معبد " ؛ وذلك لما بين الجملتين من التوسط بين الكمالين ، فقد اتفقت الجملتان في الإنشائيّة لفظا ومعنى . و تقديم النداء على النهي يشير إلى العناية بهذا النهي ، فقد نبه الشاعر ابنة أخيه ثمّ نهاها ، فوقع النهي على نفس مُهيّأة واعية لما يلقيه عليها من أفعال وصفات لا يتحلّى بها إلا العظماء من الناس . و قد بنى الشاعر افتخاره ببعض أفعاله وصفاته الحميدة على نهيه ابنة أخيه أن تساويه برجل متصف بأضداد أفعاله وصفاته ، فهذا الرجل لا يشبهه في الهم بالأمر العظيم والقيام به قياما فيه نفع وانتصار له و لقومه : " وَلا تجعَليني كامْرِئٍ ليْسَ هَمّهُ ، كَهَمّي ولا يُغني غَنائي و مَشهدي ." فأثبت الشاعر لنفسه هذا الفعل بنفي شبيه لهذا الفعل من آخر ؛ مبالغة في قوة و كمال هذا الفعل في الشاعر . وجاء النفي : " ليس همه كهمي " عقب النهي تأكيدا للنهي وتثبيتا له في نفس ابنة أخيه . ثم تابع الشاعر بإثبات فعل حميد آخر له ، وهو الإسراع لنجدة قومه إذا نابهم أمر جليل ، و ذلك بطريق وصف الرجل المنهي أن يكون الشاعر شبيهه بضد هذا الفعل في قوله: " بَطِيءٍ عَنِ الْجُلّي سَريعٍ إلى الخنا " ، فقد كشف الطباق بين " بطيء " و" سريع " عن السلوك المذموم لهذا الرجل ، فهو متقاعس عن نجدة القوم إذا ألمّ بهم أمر جليل ، ونهّاض مسرع إلى مكان الفساد والدناءة . وأثبت الشاعر – أيضا– لنفسه صفة العزّة ، فهو عزيز في قومه ، وذلك بوصف الرجل المنهي أن يكون الشاعر شبيهه بصفة الذلّة ، فهو ذليل في قومه :" ذَليلٍ بِأَجْمَاعِ الرّجالِ مُلَهَّدِ "، وأكّد ذله المصرّح به بالكناية عنه في قوله :" بِأَجْمَاعِ الرّجالِ مُلَهَّدِ " ، فهو رجل ملكوز مدفوع من الرجال لذله وضعفه .ويلاحظ أنّ الشاعر أثبت لنفسه بعض الصفات والأفعال الحميد بطريق إثبات أضدادها لرجل آخر ، و كأنّه أراد أن يشعرنا أنّه نابذ لهذه الأفعال و الصفات المذمومة ، ناقم عليها وعلى من يتصف

بهـا ، وهـذا أحـرى لتثبيـت أضـدادها لـه ، وهـي الأفعـال والصـفات الحمـيدة ، و استقرارها في نفس المتلقي والسامع .

ثم تحـوّل الشـاعر إلـى أسلوب آخر لإثبات صفـة من الصفات الحميدة لـه ، وهو أسلوب الشرط بـ " لو " في قوله :

فَلَـوْ كُنْـتُ وَغْـلًا فـي الرّجَـال لَضَـرّنِي عــداوَةُ ذي الأصــحابِ و الْمُتَوَحِّــدِ

فقد أفاد أسلوب الشرط بـ " لو " امتناع إلحاق الضرر به من صاحب الجماعة التي تنصره وتقويه ، والفرد الذي ليس معه جماعة تنصره ؛ و ذلك لامتنـاع كون الشاعر نذلا ضعيفا .

فأسلوب الشرط – هنا – كناية عن قوة الشاعر ، فلم يصرح بأنّه قويّ ، وإنّما قدّم الدليل على هذه القوة ، وهو عدم القدرة على إلحاق الضرر بـه من صاحب العشيرة والجماعة ، وكذلك الفرد الذي ليس معه جماعة . وهذا دليل مادي يشعر بالتحدّي ، و التيه بالقوة .

و أكّد الشاعر الكناية عن قوته التي بنيت على أسلوب الشرط بقوله :

وَلكِــنْ نَفَــى عَنِّــي الرجــال جَرَاءَتِــي وصَـبْرِي وإقْـدَامي علـيْهِمْ ومَحْتـدي

فإنّ تقديم متعلّق الفعل الجار والمجرور ، و المفعول على الفاعل في قولـه : " نَفَـى عَنِّـي الرجـال جَـرَاءَتِي ... " جـاء مؤكـدا للكنايـة ، وجاريـا فـي سـياقها ، فالشـاعر لـيس وغـلا ، وإنّمـا هـو قـويّ ، و هـذه القـوة تمنـع عنـه إسـاءة الرجـال ، فالتقديم – هنا – مؤذن بأنّ نـفي إقدام الرجال عنـه للإسـاءة إليـه من المسلّمات التي لا جدال فيها لفرط قوته .وهذا ما أكّده ذكر الصفات مصدر هـذه القوة ، وهـي الجرأة ، و الصبر ، والإقدام ، وكرم الأصل .

و ضمير النفس المتمثل في " ياء " المتكلم " عني ، جراءتي ، صبري ، إقدامي ، محتدي " يشيع نبرة الاعتزاز بالنفس ، و الجنوح بها إلى الشعور بالعظمة .

وأثبت الشاعر لنفسه صفة وضوح الرؤية إذا أراد المضي في أمر من أمور الحياة بأسلوب الكناية في قوله :

لَعَمْرُكَ ما أمْرِي عليّ بِغُمَّةٍ نَهَارِي ولا لَيلِي عَليّ بسرْمَدِ

البيت كناية عن وضوح الرؤية عند الشاعر ، فالأمور غير ملتبسة عليه ، إذا هم بأمر أمضاه وأنفذه ، و لم يتردد فيه فيشغل باله.[1] و قد بنى الشاعر هذه الكناية على أسلوبين مؤكدين لها ، وهما : القسم ، والنفي. فالقسم :" لعمرك " يعرب عن ثقة الشاعر في نفسه،

والنفي : " ما أمْرِي عليّ بِغُمَّةٍ ... " يؤكد هذه الثقة بإضافة المنفي " أمر" إلى ضمير النفس " ياء" المتكلم. وقد يكون قوله : " ولا لَيلِي عَليّ بسرْمَدِ " كناية مستقلة عن صفة أخرى ، وهي الصبر إذا نزل به هم ، أي : إذا نزل به هم تلقاه بالصبر فلم يطل ليله.[2]

و أخيرا أثبت الشاعر مفتخرا لنفسه صبره وجلده وشجاعته في موطن الحرب إذا حمي وطيسها ، يقول :

وَيَوْمَ حَبَسْتُ النَّفْسَ عندَ عِرَاكِها حفَاظًا عَلى عوْرَاتِهِ والتّهَدّدِ

عَلَى مَوْطنٍ يخشَى الفَتَى عندَهُ الرّدَى متى تعْترِكُ فيهِ الفرَائصُ تُرْعَدِ

---

[1] ينظر : ديوان طرفة : ٥٨ .

[2] ينظر: ديوان طرفه : ٥٨ .

فقد كنى الشاعر عن قوة صبره وجلده في موطن الحرب بقوله : " وَيَوْمَ حَبَسْتُ النَّفْسَ عندَ عرَاكِها. " و جاء التعليل بالمفعول لأجله " حفاظا " في قوله : " حفَاظًا عَلى عوْرَاتِهِ والتّهَدّدِ " كاشفا عن الحافز النفسي الذي دفع الشاعر على إبداء قوة الصبر والجلد في موطن الحرب ، وهو مخافة لحوق العار به ، وتهديد الأعداء له بالهزيمة . وإسناد الحبس إلى الضمير البارز في قوله : " حبستُ " يشعر بالعزّة و الأنفة ، وهذا ما بدا جليّا في قوله :" عَلَى مَوْطنٍ يخشَى الفَتَى عندَهُ الرّدَى " ، فحرف الجر" على" مؤذن بالاستعلاء الناجم من الثقة في النفس ، وامتلاك الأدوات النفسية والمادية للانتصار في الحرب .

وقد أتبع الشاعر الكناية عن قوة صبره وجلده بكناية أخرى تأكيدا لها في قوله :

عَلَى مَوْطنٍ يخشَى الفَتَى عندَهُ الرّدَى متى تعْترِكُ فيهِ الفرَائصُ تُرْعَدِ

فالبيت كله كناية عن شجاعة الشاعر ، وقوة صبره وجلده في الحرب ، فقد ذكر شجاعته ، وقوة صبره وجلده بالدليل ، وهو خشية الفتى الفارس الشجاع الموت ، وارتعاد فرائصه عند وقوفه موقف الشاعر في هذه الحرب . وعرّف لفظ " الفتى " بأل الجنسية ؛ ليدخل كل فتى فارسا شجاعا مقداما ؛ مبالغة في خطر وشدة موطن الحرب الذي يقف فيه الشاعر .

خاتمة البحث

١- قد برزت خصوصية للفخر الذاتي في معلّقة طرفة ، وهي اعتماده على أسلوب الشرط بأدواته المختلفة ، حيث وظّف مدلول كل أداة توظيفا بلاغيّا مؤكدا به الصفة المفتخر بها .

فقد وظّف مدلول " إذا " الشرطيّة في تثبيت المعنى الذي يريده ، وتقريره ، والإشعار بأنّه صار ديدنا وعادة ؛ ليصل منه إلى تثبيت الصفة التي يفتخر بها ، كما جاء في الفخر بالشجاعة في قوله : " إذا ما قمتُ منتصرًا به ... ، إذا ابتدر القوم السلاح ... ." والفخر بنجدة المستغيث والملهوف في قوله :" إذا القوم قالوا : من فتى ... ." وكذلك وظّف مدلول " إنْ " الشرطية في تثبيت معنى الفخر الذي يريده ، و دفع توهم غير المُراد ، كما جاء في الفخر بترويض النّاقة في قوله : " وإنْ شِئتُ سامَى واسِطَ الكور رأسُهَا ... ، وإنْ شِئتُ لم تُرْقِل ... ." وتوظيف مدلول " إن " الشرطية لم يجر دائما في مجرى الفخر كما أراد طرفة ، بل حاد عنه لمّا تجلّت فطرة الشاعر البدويّة و سيطرت عليه ؛ فجاء مفصحا عن حالته النفسية ، عاكسا مشاعره الحقيقيّة التي مارت بها نفسه دون تكلف أو مواربة ؛ و ذلك بابتعاد الشاعر عن مقتضى مقام الفخر في استعمال " إذا " دون " إن " ؛ لتقرير الصفة وتحقيقها ، و ليس للشك فيها أو التردد ، كما حدث في فخره بنجدة المستغيث الذي ورد في سياق الحديث عن خذلان ابن عمه له . فقد ألقى أسلوب الشرط بـ " إن " بظلال نفس طرفة التي تعرض على ابن عمه النجدة إذا تعرّض لمكروه بإحساس بارد غير جاد ، وإنّما شاك في النصرة والنجدة . و وظّف الشاعر الدلالة الزمانية لـ " متى " الشرطية للإشعار بإطلاق الزمن ؛ مبالغة في صفة الكرم المتمثل في العطاء المستمر ، كما جاء في قوله : " متى يسترفد القوم أرفد ، متى تأتني أصبحك كأسا رويّة ." ووظّف – أيضا- مدلول " لولا " الشرطية للكشف عن

الترابط القوي بينه و بين لذاته ، فهو يهتم بحياته ، ويحافظ عليها من أجل لذّاته ، كما جاء في قوله : " فلولا ثلاث هُنّ من حاجة الفتى ... ."

٢- اتّخذ طرفة القصة وسيلة لإثبات كرمه و تأكيده ، كما جاء في قصة مروره بين نوق الشيخ بسيفه ، وحكاية رد فعل الشيخ على ذبح ناقته.وقد بنى أهم مشهدين في هذه القصة على الجملة الحالية ، و ذلك في قوله : " أمشي بعضب مجرّد ، و قد ترّ الوظيف وساقها."

٣- يلاحظ ندرة الاستعارة والتشبيه في الفخر الذاتي في معلّقة طرفة ، ومع هذه الندرة نجح في توظيف الاستعارة لتصوير خوف صاحبه ؛ ليدلل به على شجاعته في قوله : " وجاشت إليه النفس خوفا..." ، كما نجح في توظيف الصورة الحسية المتمثلة في التشبيه في نقل الصفات المعنوية إلى حسية ؛ لتكون أبين وأشد تأثيرا ، كما جاء في الفخر بندمائه : " نداماي بيض كالنجوم ."

٤- نوّع الشاعر في بنية الكناية عن صفاته ، فجاءت مرة مبنيّة على أسلوب الشرط بـ " لو " في قوله : " فلو كنت وغْلا ... " كناية عن قوته . وجاءت ثانية مبنية على أسلوب النفي بـ " ما " في قوله : " ما أمري عليّ بغمّة ... " كناية عن وضوح الرؤية . و أخيرا جاءت بأسلوب خبريّ مثبت إذا كان " يوم " مجرورا بحرف الجر الشبيه بالزائد "ربّ " في قوله : " ويوم حبست النفس عند عراكها..." كناية عن الصبر والجلد في موطن الحرب .

٥- أفاد إسناد الفعل إلى الضمير البارز إبراز الذات ، والثقة في النفس ، كما في قوله : " آليتُ ، قمتُ ، وجدتني ، خلتُ ، عنيتُ "

٦- حمل ضمير النفس المتمثل في " ياء " المتكلم مشاعر التيه والعجب في قوله : " تشرابي ، لذّتي ، بيعي ، إنفاقي ، طريفي ، متلدي "

٧- استخدم الشاعر مفردات لها مدلولات قوية قوة غرابتها زادت الفخر قوة و مبالغة كـ " أجذم ، المُضاف ، الغضا ، محنّبا ، نكيثة ، الجُلّى ، القَذْع ، بهْكَنة ."

مراجع البحث ومصادره

١- أزمة الذات الشعريّة معلّقات " امرئ القيس و طرفة بن العبد و عنترة " نموذجا . د/ محمد سعيد حسين ، و د/ حسن إسماعيل . مجلة جامعة تكريت للعلوم ، المجلد ١٩، العدد ٧، تموز ٢٠١٢م

٢- الاشتقاق لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد ، تحقيق:عبد السلام محمد هارون. ط- الثالثة ، مكتبة الخانجي القاهرة .

٣- تاج العروس للزبيدي . تحقيق : مصطفى حجازي. ط – حكومة الكويت ١٢٩٧ هـ - ١٩٧٧م .

٤- التحفة السنيّة بشرح المقدّمة الآجروميّة ، تأليف : محمد محيي الدين عبد الحميد . ط – مكتب السنة ١٩٨٩م - ١٤٠٩ هـ .

٥- حديث الأربعاء ، د/ طه حسين . ط- الثالثة عشرة ، دار المعارف .

٦- خزانة الأدب ، تأليف : عبد القادر بن عمر البغدادي . تحقيق : عبد السلام هارون . ط- الرابعة ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م

٧- خصائص التراكيب ، د / محمد أبو موسى . ط – الثامنة ، مكتبة وهبة ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م .

٨- الخصائص لابن جني .تحقيق : عبد الحكيم بن محمد .ط – المكتبة التوفيقية .

٩- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق : محمود محمد شاكر . ط – الثالثة ، مطبعة المدني ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .

١٠- دلالات التراكيب . د / محمد أبو موسى.ط- الرابعة ، مكتبة وهبة ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م

١١- دليل السالك إلى ألفية ابن مالك لـ / عبد الله بن صالح . ط- الأولى ، دار المسلم ١٩٩٨م .

١٢- شرح المعلقات السبع للزوزني . ط - الدار العالمية ١٩٩٣ .

١٣- طرفة بن العبد ، تحقيق : حمدو طمّاس . ط – الأولى ، دار المعرفة ، بيروت – لبنان ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م .

١٤- طرفة بن العبد حياته و شعره ، د / محمد علي الهاشمي . ط – الأولى ، عالم الكتب ١٤٠٠ – ١٩٨٠م .

١٥- طرفة بن العبد حياته و شعره " ماجستير " للباحث/ محمد الشيخ محمود صيام . مخطوط في جامعة الملك عبد العزيز ، كلية الشريعة و الدراسات الإسلامية ، مكة المكرمة ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م

١٦- طرفة بن العبد شرح الأعلم الشَّنْتَمَرِيّ ، تحقيق : دريّة الخطيب ، ولطفي الصقّال . ط – الثانية ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت – لبنان . وإدارة الثقافة والفنون ، البحرين ٢٠٠٠م .

١٧- علم المعاني ، د / بسيوني عبد الفتاح فيود . ط – الثانية ، مؤسسة المختار ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م

١٨- الفخر و الحماسة ، تأليف: حنّا الفاخوري.ط- الخامسة ، دار المعارف.

١٩- قراءة في الأدب القديم ، د/ محمد أبو موسى . ط – الثالثة ، مكتبة وهبة ٢٠٠٦م .

٢٠- لسان العرب لابن منظور ، تحقيق : عامر أحمد حيدر. ط – الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ٢٠٠٣م – ١٤٢٤هـ .

٢١- المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده . تحقيق : د/ عبد الحميد هنداوي ٢٧٧ . ط- الأولى ، دار الكتب العلميّة ، بيروت - لبنان ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

٢٢- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني . ط - المكتبة التوفيقيّة .

٢٣- مقاييس اللغة لابن فارس ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون. ط - دار الفكر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

٢٤- من أسرار التعبير القرآني ، دراسة تحليليّة لسورة الأحزاب ، د/ محمد أبو موسى . ط - الثانية ، مكتبة وهبة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

٢٥- نهاية الأرب من شرح معلقات العرب ، تأليف :السيد محمد بدر الدين أبي فراس الحلبي . ط - الأولى ، مطبعة السعادة ١٣٢٤هـ - ١٩٠٦م .